
56
كتابي
إيثيل مانين
الطريق إلى بئر سبع
الجزء الأول
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

هاتان السلسلتان .. فى عهدهما الجديد

عزيزى القارىء ..

فى مستهل هذه المرحلة الجديدة من حياة (كتابى) و (مطبوعات كتابى) ـ السلسلتين اللتين حبوتهما بحبك واعزازك منذ اللحظة الأولى لصدورهما ، حتى اليوم ، طوال اثنى عشر عاما ـ أرى من حقك على أن نتبادل معا حديثا « من القلب إلى القلب » ، كما ألفنا أن نتبادل فى كل مناسبة سابقة ..

والمناسبة أو « البشرى » الجديدة التى أود أن أزفها اليك ـ وإلى نفسى فى الوقت عينه ـ هو أن أمنية قديمة من أمانى قد آن لها أخيرا أن تتحقق .. والأمنية التى أعنيها ، والتى طالما تمنيتها ، هى أن أتخفف من أحد العبئين الثقيلين اللذين أخذتهما على عاتقى ـ مضطرا ـ منذ أصدرت العدد الأول من (كتابى) فى مارس عام ١٩٥٢ .. وهما : أولا ، عبء مسئوليتى كناشر للسلسلتين (بكل ما تحمل عملية النشر فى ذاتها من متاعب ، وهموم ، وأعباء إدارية والتزامات مالية وحسابية .. ومشكلات طباعة ، وورق ، وحبر ، وتسويق ، وتوزيع .. إلى آخر هذه الدوامة الرهيبة !) .. وثانيا : عبء مسئوليتى عن تحرير السلسلتين ، (بكل ما تحمله عملية التحرير من مهام حبيبة إلى نفسى ، وتحليق فى آفاق الفكر والثقافات والفنون .. ومعاناة لمشكلات

الحرص على أمانة الترجمة وسلامة التلخيص وجمال الاسلوب .. الخ) .

ولا اكتمك أننى لم أقدم على الاضطلاع بكلا العينين ، حين اصدرت (كتابى) ، إلا لأننى لم أجد الناشر الذواقة الذى يؤمن بفكرتى ويولى المشروع ثقته ويطمئن إلى نجاحه ، فيتقدم على إخراجه إلى حيز التنفيذ .. فكان أن اضطررت إلى تنفيذه بمفردى ، وقد جرف إيمانى ترددى ، وغلبتنى حماستى له على أمرى ..

كما لا أكتمك أننى قد طالما شقيت بهذين العبئين اللذين أثقلا كاهلى طوال هذه الأعوام الاثنى عشر .. وفى الوقت الذى كانت فيه دوائر الصحافة والأدب فى العالم العربى تتجاوب بأصداء نجاح (كتابى) و (مطبوعاته) كنت أنا أتجرع غصص التعاسة والألم ، والرثاء لنفسى من اجل المصير الذى انتهيت إليه ، و (الساقية) التى وجدتنى مشدودا إليها ، مسئولا عن دورانها المستمر بلا توقف ، كالثور المعصوب العينين ..

.. وكلما ضقت بتعاستى ، تأججت بين جوانحى نيران الثورة على نفسى وعلى الوضع الشاذ الذى وجدتنى أسيرا له .. وضع « الكاتب » الذى يعمل « ناشرا » ، والأديب الذى يقضى أيامه ويفنى حياته فى مواجهة مشكلات الإدارة والطباعة ، والحبر والورق ، والفواتير والحسابات .. والعياذ بالله !

.. واشتقت إلى أن أكون أديبا وكاتبا ، وحسب !.. أقرأ ، مستمتعا بالقراءة .. واكتب ، مستمتعا بالكتابة .. كما بدأت .. وكما هى طبيعتى ، ومزاجى ، وحلم حياتى !.. اشتقت إلى ذلك شوقا كاد يغرينى بأن أحطم كل عائق يقف بينى وبين حلمى العتيد ، ولو كان هذا العائق (كتابى) !!

.. وحين كان حنقى على نفسى يقهرنى ، وإحساسى بالارهاق يسول لى أن أتوقف عن إصدار كتابى !.. أو يحملنى على الأقل على التراخى فى إصداره بانتظام ، كى أتحرر بعض الوقت من « الأسر » ، وأستريح من جر الساقية والدوران حولها كالثور ، معصوب العينين .. فاستمتع بقراءاتى المحببة ، فى غفلة من سوط الجلاد الذى يلهب ظهرى .. كانت صيحاتك تلاحقنى : كتابى يجب أن يستمر .. كتابى يجب أن يصدر بانتظام .. فكنت أرضخ لمشيئتك ، وينسينى إشفاقى على (كتابى) ، إشفاقى على نفسى .. فأستسلم لمصيرى ، وأمضى فى طريقى ، كاسف البال ..

.. حتى سنحت فرصة لمست فيها من الوزير الإنسان ، راعى الثقافة والآداب والفنون ، الدكتور محمد عبد القادر حاتم ، غيرة ــ مشكورة ــ على كتابى ومطبوعاته ، وقلقا ــ لا أدرى كيف أصفه ــ من أجل عدم انتظامهما ، وتقديرا كريما للرسالة التى يستهدفانها .. وترحيبا ــ يثلج صدرى ــ بأن تتولى « مؤسسة الأنباء والنشر » عنى عبء إصدار السلسلتين اللتين أفنت متاعبهما زهرة عمرى ، والتهمتا

خير سنوات حياتى .. فتعلقت مرحبا بطوق النجاة ، وداعبنى ــ من جديد ــ الأمل فى أن أعود كاتبا ، وأديبا ، وحسب .. أحلق فى دنيا الأدب ، والفكرة ، والفن ، كالنحلة ، لأجمع لك من كل زهرة من أزهار المعرفة رحيقها العذب .. ومن كل نبع من ينابيع الثقافة قطرات وقطرات ..

ولست أزعم أننى قد تخففت ــ بعد ــ من الأعباء « المزدوجة » التى أرهقتنى ، فليس ذلك بالأمر اليسير ، سيما فى البداية .. كما لا أزعم أن العدد الأول الذى بين يديك يرضينى ، أو يرضيك ــ فان أحلامى لكتابى لا تقف عند حد ــ وإنما هو مجرد إيذان بالعودة .. عودة العجلة إلى الدوران .. وما هو إلا بداية لأعداد متلاحقة أرجو أن يتفوق كل عدد منها على سابقه .. وكلما أتاحت لى الظروف أن أتخفف من قدر من الأعباء الإدارية ، استطعت أن أعطى التحرير قدرا أكبر من الجهد ، ومن الوقت ، ومن الأعصاب ..

فاذا أسعدتك ــ أيها القارىء العزيز ــ عودة (كتابى) و (مطبوعات كتابى) إلى الصدور والانتظام ، فلتكن غبطتك بعودتهما دينا فى عنقك للوزير الذى فتح للثقافة فى بلادنا آفاقا جديدة ، تتنفس فيها ، وتزدهر ، وتترعرع .. وما عليك إلا أن تتوجه بالشكر العميق ، النابع من القلب ، للدكتور محمد عبد القادر حاتم ، الذى أتاح لكتابى ومطبوعاته مواصلة رسالتهما الثقافية التى آمن بها ، فرعاها .. فجاءت هذه الرعاية حلقة جديدة من حلقات عمله الدائب لتحقيق الثورة

الثقافية » التى ينادى بها فى كل مناسبة قائد ثورتنا المباركة الرئيس المحبوب جمال عبد الناصر ..

« الثورة الثقافية » التى خلقت مفاهيم جديدة لدور الدولة فى رعاية الآداب والعلوم والفنون ، وجعلت من وزارة الثقافة لواء ضخما يستظل به جميع العاملين فى حقول المعرفة ، سواء عن طريق أجهزة الوزارة ذاتهـا ، أو عن طريق مؤسساتها العامة ، وفى مقدمتها المؤسسة المصرية العامة للأنباء والنشر والتوزيع والطباعة ، التى أخذت على عاتقها مهمة ضخمة هى إصدار كتاب جديد كل ٦ ساعات ، وقطعت فى هـذا السبيل شوطا بعيد المدى ، ملموس الأثر .

وفى ظل هذه المفاهيم الجديدة ، لنسر معا أيها القارىء العزيز على بركة الله .

والله ولى التوفيق ؟

حلمى مراد

المؤلفة .. فى سطور

« ايثيل مانين » ـ مؤلفة هذه القصة الشائقة ـ روائيـة إنجليزية معاصرة ، من أصل ايرلندى ، ولدت فى لنـدن عام ١٩٠٠ .. وهى تعتبر « عصامية ، ثقفت نفسها بنفسها ـ إذ اضطرتها الظروف إلى ترك المدرسة فى سن الرابعة عشرة ، وبدأت حياتها العملية فى الخامسة عشرة ، ككاتبة اختزال فى فى وكالة للاعلانات .

ثم تدرجت فى العمل حتى صارت ـ فى سن ١٧ سـنة ـ مساعدة لمحرر المجلة المسرحية والرياضية (ذى بليكان) .

وفى سن الثـانية والعشرين ، كتبت روايتهـا الطـويلة الأولى ، ودخلت بها مسابقة للقصة الطويلة .

ومنذ ذلك التاريخ دأبت على نشر رواية طويلة كل عام ، بانتظام .. كما ألفت عدة كتب فى أدب الرحـلات ، وصفت فيها سياحاتها فى كل من (بورما ، الهند ، روسيا ، المغرب ، مقاطعة بريتانى (بفرنسا) ، اليابان ، ثم الشرق الأوسط) ..

وقد ترجمت كتبها إلى اللغـات : الفرنسية ، الألمانية ، الهولندية ، الأسبانية ، الإيطالية ، السكندنافية .

وهذه القصة الممتعة التى صورت فيهـا مأساة العـدوان الصهيونى الغادر على عرب فلسطين خلال حرب ١٩٤٨ ، هى أحدث رواياتها ، وقد صدرت فى لندن منذ شـهر واحـد ، ولم تترجم بعد إلى أية لغة ، سوى ترجمتها هذه إلى العربية .

اهـــداء الكتاب

إلى اللاجئين الفلسـطينيين ومن أجلهم .

أولئك الـذين قالوا لى فى كل الأقطـار العربية التى استضافتهم :

ـ لمـاذا لا تكتبين قصـتنا نحن ، قصـة الخـروج الآخـر ... خـروجنا نحـن ؟!

المؤلفة

« وأعطيتكم أرضا لم تتعبوا عليهـا ومدنـا لم تبنوها وتسكنون بها ، ومن كـروم وزيتـون لم تغرسوها تأكلون » .

يشوع : ٢٤ : ١٣

مقدمة المؤلفة

لا بد من ايضاح .

حتى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ كان ثمة بلد يسمى فلسطين ، هو الوطن العتيق للفلسطينيين القـدامى ، وهو بلد عـربى الصبغة بصورة واضحة . وحين صدر إعلان « بلفـور » فى نوفمبر سنة ١٩١٧ مؤذنا بأن الحكومة البرطانية تؤيد « قيام وطن قومى لليهود فى فلسطين » كانت غالبية السكان هناك من العرب ، بنسبة تزيد على ٩٠٪ . وكان فى فلسطين فى ذلك الوقت نحو ٥٠٫٠٠٠ يهودى . أما المسلمون والمسيحيون فكان عددهم وقتئذ نحو ٦٧٠٫٠٠٠ . ولكن فى سنة ١٩١٥ كان السير « هربرت صمويل » اليهودى والصهيونى البـارز قد نادى فى مذكرة بعنوان « مستقبل فلسطين » بهجرة ثلاثة أو أربعـة مـلايين من اليهود إلى فلسـطين تحت الحمـاية البريطانيـة . فوضحت من ذلك المطامع الصـهيونية بصورة لا خفاء فيها ، وثبت أن ما يرمون إليه ليس إنشاء موطن قومى وملاذ لضحايا الاضطهاد من اليهود فى مختلف البـلدان ، بل الهدف الحقيقى هو إقامة دولة يهودية مستكملة الأركان !

ولما صدر إعلان بلفور بعد ذلك بثلاث سنوات تقريبا ، واجه واقعا أقل من ذلك بكثير ، فكان الحل البديهى فى نظر اليهود هو ازدياد الهجرة اليهودية إلى فلسطين بحيث يصبح اليهود هناك أغلبية . وفى سنة ١٩١٩ أصدر الدكتور « وايزمان » الزعيم الصهيونى وقتئذ تصريحه المشهور بأن فلسطين ينبغى أن تغدو « يهودية مثلما تعتبر إنجلترا إنجليزية » .

وفى سنة ١٩٢٠ تجسم إعلان بلفور فى صورة الانتداب الإنجليزى على فلسطين . وكان العرب حين قاتلوا فى صف الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى ضد الأتراك قد اعتقدوا أنهم إنما يحاربون فى سبيل استقلالهم . فاذا بهم ينكبون بالانتداب الإنجليزى والفرنسى بدلا من نيل استقلالهم . وبذلت محاولة للتحكم فى الهجرة اليهودية ، ولكن الهجرة غير المشروعة ظلت فى ازدياد عن طريق مكتب للجوازات المزورة فى برلين ، فازدادت عداوة العرب ، ووقع شغب وحدثت اضطرابات وفرضت أحكام عرفية واستمر الكفاح الوطنى للحصول على الاستقلال .

وعند نشوب الحرب العالمية الثانية لم يكن الوطن القومى لليهود قد تحقق فى صورة ذاتية ، ولكن تعداد اليهود كان قد قفز من ٥٠٬٠٠٠ إلى ٦٠٠٬٠٠٠ ، وكانت حكومة الانتداب قد منحت اليهود سيطرة متزايدة على مقدرات البلد الاقتصادية .

وكانت الصناعات الصهيونية تتمتع بحماية الحكومة ، فى حين كانت القرى العربية تدمر لتفسح المجال للمستعمرات الصهيونية . وصار لليهود مستشفياتهم ومدارسهم ومنظماتهم السياسية ، وتمتعوا بمعاملة متحيزة من حماتهم البريطانيين .

وكما كانت الحرب العالمية الأولى سببا فى إعاقة المطامع الصهيونية ، كذلك عاقت الحرب العالمية الثانية الآمال العربية الوطنية ، وثبت أن الاضطهاد النازى لليهود فى ألمانيا كان سندا قويا للصهيونية .. فتألفت لجنة إنجليزية أمريكية — ثلاثة من بين أعضائها الستة من غلاة الصهيونية — زارت فلسطين فى سنة ١٩٤٦ وأوصت فى تقريرها بإدخال مائة ألف يهودى فورا إلى فلسطين ، وقد استعجل الرئيس (الدمية) ترومان تنفيذ ذلك ، مع ترك الباب مفتوحا لمزيد من التهجير مستقبلا !

ولما لم يصل مؤتمر فلسطين المنعقد فى لندن فى سنتى ١٩٤٦، ١٩٤٧ إلى اتفاق ، لأن ممثلى العرب فى ذلك المؤتمر طالبوا بقيام دولة عربية ديمقراطية مستقلة فى فلسطين ، أحيلت « مسألة فلسطين » إلى الأمم المتحدة ، وخصصت دورة غير عادية للفصل فيها . وتحت الضغط الصهيونى الذى تؤيده الولايات المتحدة ، أوصت اللجنة الخاصة التى ألفتها الأمم المتحدة لشئون فلسطين بتقسيم ذلك البلد .

وفى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ قامت الجمعية العمومية بمنظمة

الأمم المتحدة المنعقدة فى واشنطن بإقرار تقسيم فلسطين ، بأغلبية ٣٣ صوتا ضد ١٣ وامتناع ١٠ عن التصويت . وكانت بريطانيا من الدول الممتنعة عن التصويت . ونجد فى مذكرة ترومان كلاما عن الضغط الصهيونى وعن « التكتيك » الذى استخدم للحصول على هذه الأغلبية الساحقة ، إذ كتب يقول:

« لم تكن ثمة حركات للضغط على الولايات المتحدة لم يسبق لها مثيل من قبل فحسب ، بل إن البيت الأبيض أيضا كان هدفا لنيران متصلة من الضغط . فلست أعتقد أن البيت الأبيض تعرض لقدر من الضغط والدعاية كالذى تعرض له فى هذه المناسبة . وقد ازعجنى وضايقنى إلحاح بضعة من زعماء الصهيونية المتطرفين ، مدفوعين بعوامل سياسية ومستخدمين تهديدات سياسية . بل إن بعضهم قد وصل به الأمر إلى أن اقترح علينا الضغط على الدول الكبرى كى تصوت فى صالحهم عند انعقاد الجمعية العامة » .

وكذلك صرح « روبرت لوفيت » نائب وزير الخارجية بأنه لم يتعرض فى حياته إطلاقا لكل ذلك الضغط الذى وجه إليه أثناء المراحل النهائية للتصويت .

وخطة التقسيم التى أقرتها منظمة الأمم المتحدة أعطت ٦٠٪ من فلسطين ــ بما فى ذلك أخصب المناطق ــ لثلث السكان وهم اليهود . أما المليون فلسطينى وهم كل سكانها تقريبا فقد

انتزعوا من مواطنهم وجردوا من أملاكهم خلال الحرب التى نشبت بين العرب واليهود على أثر ذلك القرار . وكل ما تبقى من أرض فلسطين العربية على الضفة الغربية لنهر الأردن ضم إلى شرق الأردن على الضفة الشرقية من ذلك النهر . وبذلك قامت المملكة الهاشمية الأردنية . والشريط الضيق المتاخم لساحل البحر الأبيض والبالغ طوله ٢٥ ميلا وعرضه ٥ أميال، (وهو كل ما تبقى من ولاية غزة)، إحدى ولايات فلسطين الحرة)، قامت مصر بإدارته ، وقد منح الرئيس ناصر فى سنة ١٩٦٢ تلك المنطقة دستورا للحكم ، ولا تزيد هذه المنطقة على أن تكون معسكرا فسيحا للاجئين .

ومن بين المليون من الفلسطينيين على وجه التقريب الذين فروا من بلادهم نتيجة للإرهاب الإسرائيلى ــ الذى من أمثلته مذبحة (دير ياسين) فى أبريل سنة ١٩٤٨ ــ أو الذين طردوا من بيوتهم ــ (الأمر الذى ينكره الصهيونيون برغم الأدلة الدامغة) ــ من هؤلاء المليون يعيش أكثر من نصف مليون فى أسوأ حال بتلك المعسكرات التى تمدها الأمم المتحدة بالمعونة منذ أواخر سنة ١٩٤٩ . أما الباقون فقد استوعبتهم بلاد مضيافة . ولكن هؤلاء وهؤلاء جميعا يطالبون باستعادة وطنهم لإعادة إسكانهم . وما من واحد منهم ، سواء فى المعسكرات أو فى خارجها ، تلقى « بنسا » واحدا على سبيل التعويض عن بيوتهم وأراضيهم وأموالهم التى استولى عليها الإسرائيليون !

وفى كل عام تعيد الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة تأكيداتها لحقوق عرب فلسطين اللاجئين فى العودة إلى بلادهم . أو فى التعويض الكامل إذا لم يرغب أحد منهم فى العودة إلى حيث سيكون مواطنا من الدرجة الثانية فى دولة يهودية . ولكن هذه القرارات لا توضع قط موضع التنفيذ . بل إن مسز جولدا مايير وزيرة الخارجية الإسرائيلية أعلنت على النقيض من ذلك بصورة قاطعة أن « سياستنا لم تتغير . فنحن لن نقبل لاجئا واحدا ! » .

ولقد قسمت بلاد أخرى ولكنها بقيت بعد التقسيم محتفظة بكيانها ولها وجودها ومسمياتها على الخرائط ويسكنها أهاليها. أما فلسطين فقد انقطع وجودها من حيث هى أسم ومن حيث هى بلد . وانقطع كذلك وجود الفلسطينيين من حيث هم أمة .

إنه عصر التشتت الفلسطينى .

الكتاب الأول

الخروج

- ١ -

كانت درجة الحرارة فى السهل الساحلى أكثر من مائة درجة فهرنهيت فى الظل ـ ذلك الظل الهزيل الذى تلقيه أشجار الزيتون ، أو ظل الصخور الأحمر . فلولا ضغط الارهاب لما استطاع أحد أن يسير فى تلك الحرارة فوق تلك الأرض . فالكتائب الإسرائيلية تطرد الناس بعيدا عن الطرق ليوغلوا فى البرية بين التلال الجرداء التى لا نهاية لها .

والأرض رملية لا تطيق القدم العارية ان تمسها . أرض قوامها الرمال والصخور والحصى الرمادى والحسك . إنها أرض متموجة تنتهى إلى تلال متتابعة لا تلبث أن تذوب فى سماء استنزفت الحرارة كل ما فيها من الألوان. فالمنظر فسيح يمتد إلى ما لا نهاية فى جميع الاتجاهات . وبرية الأردن الواسعة تغص الآن بأناس معظمهم من النساء والأطفال كأنهم الجيش المشتت يتعثر فوق الصخور ويشق له طريقا بين الحصى ، يرتقى الروابى الرملية فى إعياء وقد استنزف جهده العرق ، يسقط ليقوم ويقوم ليسقط مرة أخرى . والنساء محتضنات أطفالهن يسحبن العجائز ، والعجائز يتهاوين على الأرض فيعجزن عن النهوض . ولكن الجموع الزاحفة لا تكف مع

ذلك عن التقدم ، يستحث خطاها الخوف ، تحت وهج الشمس
يعمى الأبصار . يتقدمون بين الصخور لأنهم إن لم يتقدموا
قضى عليهم بالموت من ضربة الشمس أو من العطش أو من
الإعياء !

وهم يشعرون على الدوام بالخوف من تلك الطائرات المدنية
السوداء الصغيرة التى تطير على انخفاض شديد بحيث يستطيع
المرء أن يرى من فيها من الرجال ، تحوم فوق رؤوسهم كأنها
الطيور الجارحة ، على نحو ما حدث فى الليل .. فى تلك الليلة
الأخيرة المروعة فى (اللد) .

لقد ظل « انطون منصور » يتذكر إلى أمد طويل صوت تلك
الطائرات الغريب ، وأنه لصوت يختلف عن صوت أى طائرة
أخرى . ويذكر الخوف الذى اثارته ، وإنه لخوف يختلف عن
أى خوف عرفه فى سنوات عمره الاثنتى عشرة . إن شيئا
فى رأسه بدا له أنه ينفجر مع ذلك الصوت ، ثم تدفق الدم
بلا انقطاع من أنفه . وفى البداية توقفت أمه عن السير وحاولت
أن توقف النزيف . ولكن بعد قليل لم تبق لديها بقية من الطاقة
فالتفتت برأسها وتطلعت اليه ولم تستطيع أن تتكلم . فلم يكن
أحد ينظر إلى أحد أو يكلم احدا أو يصنع شيئا لأحد . لانه
لم يبق لدى أحد منهم سوى الاصرار على الحياة ومقاومة الموت
الذى تفرضه عليهم الحرارة الشديدة والإعياء والظمأ المهلك .
فليس هناك مجال التفكير ، بل المجال كله للخوف . ولا مجال
للعاطفة ، بل المجال كله للتعاسة .

وكان « أنطون » يتلفت بين الحين والحين لينظر إلى أمه
كى يتأكد أنها لم تزل هناك . فمن السهل أن يفقد المرء أى
أحد فى ذلك الحشد من الزحام . وثمة أطفال يتخبطون بين
الحصى وهم يصرخون لأنهم فقدوا ذويهم وما من احد يلقى باله
إليهم . فإذا تعلقوا بأحد باكين منتحبين دفعهم بعيدا عنه ..
حتى النساء كن ينظرن اليهم من غير شفقة . ورأى أنطون
وهو فى شبه دوار امرأة تلقى فجأة بالطفل الذى كانت تحمله
إلى بطن حفرة حيث استقر صارخا . ومضت المرأة فى طريقها
قدما . فالجميع يسيرون إلى الأمام والشمس تنهال عليهم
بشواظها تريد أن تقتلهم ، والطائرات السوداء تحوم كالصقور
تتربص الفرصة للانقضاض من السماء التى صهرتها الحرارة،
والأرض التى لا ترحم ولا تلين تعكس ما تتلقاه من حرارة
الشمس وتصليهم به فى وحشية .

كان الجميع فى طريقهم إلى المدينة الجبلية الصغيرة
(رام الله) ، التى تبعد بضعة أميال عن القدس . ولكنهم
وقد أبعدوا عن الطريق وطوح بهم إلى جوف البرية لم يعودوا
يبصرون طريقهم ، وكان أقلية من صغار السن هم الذين
يدركون الاتجاه الصحيح ، أما البقية فكانوا يسيرون صوب
الشرق خبط عشواء . فكل ما يعنيهم أن (اللد) ينبغى أن
تكون من خلفهم ، (اللد) التى رددت شوارعها هذا الصباح
أصداء مكبرات الصوت التى أذاع بها الإسرائيليون المنتصرون
أوامرهم إلى السكان :

— اخرجوا ! اذهبوا إلى الملك عبد الله !

ومع انطون كان يسير غلام أعمى أكبر منه سنا بقليل هو ابن خادم ضيعة أبيه . كانا يمشيان ويد انطون اليمنى قابضة على يد (أمين) اليسرى . ويداهما معا مرفوعتان إلى كتف انطون بحيث يظل الغلام الأعمى ملتصقا به . وقلما كانا يتحدثان . ولا كان أحد منهما يشكو أو يتذمر .

أما « بطرس منصور » — والد أنطون — فكان يسير مع أخيه فريد ، وكلاهما من ذوى الوزن الثقيل ، لم يألفا السير أكثر من بضع خطوات إلى سيارتيهما ، فلقد كانا من أهل الثراء ، وكانت حياتهما على الدوام سهلة هينة ، من الناحية المادية على الأقل ، ومن ورائهما سارت زوجتاهما : «ماريان» زوجة بطرس الإنجليزية ، و « ماجدة » زوجة فريد ، وابنتها الكبرى نادية . وإلى جوارهن كان طفلا نادية الصغيران يتعثران ويبكيان ويشكوان بلا انقطاع من التعب والعطش . وكانت شفاههما قد ابيضت كأنما عليها طبقة من الملح . فكانت ماريان وسلفتها تتناوبان حملهما على فترات قصيرة وهما تترنحان وتتعثران فوق الأرض الصلدة . أما نادية فكانت تمشى خافضة الرأس غير مكترثة بعذابهما ، منطوية على جحيمها الخاص . ولكم تمنت لو كانت مسلمة كى يتسنى لها أن تخفى وجهها خلف نقاب .

منذ بضعة أيام احدقت الكتائب اليهودية بالرجال من جميع الأعمار واعتقلوهم فى مسجدى المدينة ، وكان زوجها «نصرى» من بينهم ، وكذلك أبوها وأعمامها وأخوالها وابناء العم والخال واخوتها . وبالأمس أطلق سراح أولئك الرجال ولكن نصرى

لم يكن بين من أطلق سراحهم ، لأن جميع من هم فى سن التجنيد قد أرسلوا إلى معسكر للاعتقال . هذا بالنسبة لمن كانوا فى المسجد الكبير . أما الثلاثمائة رجل الذين كانوا معتقلين فى المسجد الصغير فلم يفرج عن أى واحد منهم إذ حدث منهم شغب صغير اخمد بنيران المدافع الرشاشة . وتقرر عدم الافراج عن أحد منهم إطلاقا .

وفى البداية كان من رأى جميع الرجال المقيمين فى دار منصور التوجه إلى المسجد الصغير لأنه أقرب إلى الدار ، وبذلك يتحاشون اختراق المدينة والتحرش بالجنود الإسرائيليين من الجنسين . وكان منظر النساء المجندات غريبا وهن يحملن مدافع شتين وقد ارتدين سراويل قصيرة تكشف عن أفخاذهن البضة العارية. ولكن منصور عارض فكرة الذهاب إلى الجامع الصغير قائلا إن الأفضل الذهاب إلى الجامع الكبير والبقاء هناك قرب الأبواب ، لأن إشاعة كانت قد سرت بين الناس مؤداها أن ثلاث سيارات مسلحة تابعة للفيلق العربى ظهرت على مشارف المدينة ، ومن المؤكد أن هذه السيارات ستتلوها قوات مسلحة من ذلك الفيلق ، وسيكون الجامع الكبير أول مكان يحررونه . ولما كان بطرس رأس الأسرة فقد أصغى الجميع لكلامه باحترام وذهبوا عن بكرة أبيهم فى صحبته إلى الجامع الكبير .

وقبل عودة الرجال حضر جنديان إسرائيليان إلى « دارة الخير » — وهو اسم دار منصور — فى طلب الماء . ومن وراء قضبان نافذة فى الطابق الأول استرقت النظر إليهما نادية

وخادمة تدعى « رندا » تقوم برعاية شئون الطفلين ، ومعهما بضع نساء أخريات ، فانتابهن فزع شديد ، بيد أن نادية وجدت فى نفسها الشجاعة كى تصيح بالجنديين :

ــ ماذا تريدان ؟

ونظر الجنديان الشابان إلى فوق وضحكا ، ثم أجاب أحدهما بلغة عربية ركيكة :

ــ لا تخفن . نحن من « الهاجاناه » ولسنا من «شتيرن» . لا نريد شيئا سوى الماء . الحر شديد ونحن ظمآنان . تعطفن علينا !

وقال شيئا للجندى الآخر الذى ضحك ثم أنزل الاثنان مدفعى (شتين) عن كتفيهما وأسنداهما إلى جذع شجرة جزورينا فى مواجهة مدخل الدار ، ثم التفت الجندى الذى كان قد طلب الماء صوب النافذة ، وقال :

ــ ها انتن ترين . لسنا مسلحين !

وكان شابا وسيما ذا ابتسامة صافية كابتسامة الأطفال . ولم ترد نادية على ابتسامته بابتسامة ، ولكنها قالت : « سأرسل إليكما بماء » .. وأمرت خادمتها « رندا » بأن تحمل إليهما إبريقا من الماء المثلوج ، فقالت ماريان للخادمة فجأة :

ــ خذى الماء فى إبريق من الأباريق البللورية الفاخرة . وخذى أيضا كوبين من البللور . يجب أن نريهما أننا شعب متحضر ! لو كان بطرس هنا لكانت هذه مشيئته . فهما على كل حال ضيفانا .

فاحتجت نادية قائلة :

ــ ولكنهما من الأعــداء !

ــ إلا أنهما استضافا نفسيهما فى دارنا . ثم هما شخصان تبدو عليهما أمارات المودة .

وذهبت رندا فأحضرت الماء المثلوج فى إبـريق من البللور ووضعت إلى جواره كأسين من البللور فوق صينية من الفضة، ونزلت حافية القدمين فوق السلم الرخامى العريض ثم اجتازت بهو المدخل المرصوف بالفسيفساء إلى الباب الأمامى . وعندما فتحت الباب كان الجنديان جالسين على سياج شرفة المدخل المنخفض ، فأشارت لهما إلى الصينية التى وضعتها على منضدة داخل الباب مباشرة ، فوجه إليهما الجندى الذى كان قد طلب الماء كلمات الشكر باللغة العربية . أما الآخر فتقدم إلى الأمام وقال لها بلغة إنجليزية « خنفاء » :

ــ هالو أيتها الحسناء ! اتتكلمين الإنجليزية ؟

وكانت رندا فى الواقع تتكلم شيئا من الإنجليزية ، التى تعلمتها وهى فى خدمة آل منصور ، فهزت رأسها . وقال لها الآخر ، عن زميله :

ــ إنه لبنانى أمريكى ولا يعرف العربية كثيرا .

ثم صب كأسا من الماء وتجرعها وصب كأسا أخرى . أما زميله فشرب نصف كأس من الماء ثم طرح بالكأس إلى الأرض فتطايرت شظايا البللور فى كل اتجاه وراح يضحك فى عصبية وهو يقول :

ــ إننا نصنع ذلك فى حفلات الزفاف اليهودية . فهو عمل رمزى !

ولم تفهم رندا ما قال ، ولكنها أجفلت متراجعة إلى الوراء ، وقد افزعتها لهجته وهيئته ، مستاءة لتحطيم الكأس الثمينة . فمد يديه وقبض على معصمها وجذبها إليه ، قائلا :

ــ هيا يا حسناء . هيا بنا نحتفل بالزفاف !

ــ فصرخت الفتاة وناضلته بعنف ، إلا أنه كانت ثمة حجرة للاستقبال يفضى إليها باب فى البهو فجذبها إلى داخل تلك الحجرة وأغلق دونهما الأبواب . وضحك الجندى الآخر وصب لنفسه مزيدا من الماء .

وأتت صرخات رندا بنادية وماريان والنساء الأخريات إلى رأس السلم .. بينما صاحت ماريان الإنجليزية فى حدة :

ــ ما الخبر ؟ ما الذى يحدث ؟ أين الخادمة ؟

فضحك الجندى ثم قال :

ــ إنها بسبيلها إلى فقد بكارتها كما يبدو من صوتها !

وكانت ماريان قد اندفعت تنزل السلالم فى غضب أعمى ، وتبعتها نادية . وكان الجندى الآخر فى الانتظار عند نهاية السلالم فأطبقت ذراعاه حول نادية بمجرد نزولها ، وضحك ضحكة النصر إذ وجدها تناضل وتصرخ وترفس ، وقد تسمرت ذراعاها إلى جانبيها ، وكانت قبضته فى منتهى الشدة ، فرفعها مدى الخطوات القليلة عبر البهو إلى الحجرة ، والتفت من فوق ظهره عندما وضع يده على مقبض الباب وقال لماريان :

وقد أفزعتها لهجته وهيئته ، مستاءة لتحطيم الكأس الثمينة . فمد يديه وقبض على معصمها وجذبها اليه

ــ كل شيء على ما يرام يا أماه . فى وسعك ان تنصرفى !

وبعد ذلك صفق الباب فى وجه ماريان .. وأدير مفتاح فى قفله .. وارتفعت صرخات نادية وصيحاتها غطغت على نحيبها !

***

كانت رندا تسير بتثاقل ومشقة خلف نادية والمرأة الإنجليزية . وكانت تمشى معها خادمات أخر ممن يعملن فى دار منصور وضيعته ، وأناس متباينون ممن أووا إلى تلك الضيعة فى الأيام والليالى القلائل الأخيرة ــ ولقد بلغ عدد من لاذوا فى النهاية بذلك البيت الكبير العريق المسمى (دارة الخير) إلى أن اعتقل الرجال ، قرابة مائة شخص ..

وكانت الفتاة تعانى من الصدمة وينتابها الدوار وهى سائرة اشبه بحيوان مصعوق ، غارقة فى تعاستها إلى درجة لا يمكن ان تشعر معها حتى بالحر أو العطش ، وقد استحوذ عليها الرعب إلى درجة تعجز معها عن الشعور حتى بالخوف .

وكانت المرأة الإنجليزية فريسة مثلها للرعب . فباعتبارها سيدة الدار كان فى وسعها أن تلغى أمر نادية إلى رندا بإنزال الماء إلى هذين الجنديين اليهوديين . كان فى وسعها أن تمنع ذلك وأن تبقى الدار مغلقة الأبواب فى وجهيهما .. أجل ، كانا حريين فى هذه الحالة ولا شك أن ينسفا قفل الباب بالرصاص ويقتحما الدار . ولكن فى تلك الحالة على الأقل ، حتى لو تم اغتصاب نادية ورندا ، لم تكن لتلحقها شخصيا أية مسئولية

أدبية مما تشعر بوطأتها الآن على كاهلها . ولقد عاد بطرس بعدئذ من الجامع من دون « نصرى » وقد حطمته أنباء المذبحة الوحشية التى وقعت فى الجامع الصغير ، ولم تكن زوجته قد أخبرته بعد بما حدث لنادية وللخادمة . وفريد أيضا لم يكن بلغه النبأ المزلزل !

على أن بال « ماريان » مشغول الآن إلى أقصى حد بشأن زوجها بطرس . إذ كيف يستطيع رجل فى مثل سنة وقد جاوز الستين ، لم يألف السير حتى على الطرق الممهدة ، مصاب بعلة فى القلب ، أن يظل حيا بعد ساعات من التعثر المستمر فوق هذه الأرض الوعرة القاسية ، فى هذا الحر المحرق ، ومن غير ماء ؟

كان يمشى على غير هدى ، ويضرب فى طريقه خبط عشواء مثلما يفعل المسنون حوله من الرجال والنساء ، فيضع قدما أمام أخرى من غير تفكير ، وبطريقة آلية ، لا لشيء إلا لأنه لا مناص له من ذلك ، وإلا فليس أمامه سوى السقوط على الأرض بين أكداس الحصى الرمادى اللون ونبات الحسك الشائك ، حيث يقضى نحبه .. مثلما قضى كثيرون غيره نحبهم عندما عجزوا عن الاستمرار فى المناضلة ، فخروا على الأرض لاهثين فاغرى الأفواه فى ذلك الظل المحمى تحت الصخور ، أو فى خميلة عارضة من خمائل الزيتون المتناثرة بين الأحجار ، وهم يئنون :

ــ ماء ! أعطونا ماء !



وكان الظمأ الكبير قد بدأ ينتاب بطرس قبل أن يطردوا جميعا إلى البرية . ولم يكن معهم من مقتنيات الدنيا إلا الثياب التى يرتدونها ، بعد أن جردوا من ساعات معاصمهم وأقلام حبرهم، بل ومن خواتم الزواج ، لقد بدأ ظمأه فى المسجد ، وكان بالمسجد ماء فى الميضأة حيث يتوضأ المؤمنون من صهريج قبل أن يؤدوا الصلاة ، ولكن الحراس الاسرائيليين تبولوا فى ذلك الصهريج وهم يقهقهون ويهيبون بالفلسطينيين ، قائلين :

ـ هيا تعالوا واشربوا ! وستجدون مذاقه طيبا !

ولما رجع إلى البيت وجد به ثلاثة جنود ، رجلين وامرأة ، واقفين بجانب سيارته عند رأس الممر الطويل المغروس بأشجار النخيل والجزورينا المفضى إلى داره . وكانت المرأة شابة وسيمة ذات عينين قويتى النظرة ، فيها اعتداد شديد بالنفس يبلغ حد السلاطة ، ففرست فى ظهره مدفع ستين وسألته بلهجة المانية واضحة جدا فى نطقها الإنجليزى :

ـ اتتكلم الإنجليزية ؟

فلما قال لها نعم طلبت منه مفاتيح السيارة ، فسلمها إليها، وركب الجنود الثلاثة سيارته ، وأطلت عليه المرأة المجندة من النافذة المجاورة لمقعد السائق لتقول له :

ـ من الخير لك ولأسرتك أن تغادروا الدار بسرعة ، وإلا فلن تساوى حياتكم جميعا فلسا واحدا !

وضحك رفيقاها . وعندئذ استطردت مزهوة بوقاحتها :

ـ حتى ولا ثمن الرصاصة !

ثم بصقت عليه .. وانطلق الثلاثة بالسيارة .

أما بطرس فوقف عند رأس سلم مدخل بيته يرقب السيارة الكبيرة البيضاء وهى تنهب ممر أشجار الجزورينا ، وهى وقفة طالما وقفها باعتباره رب البيت المضياف يودع ضيوفه . ثم دخل البيت فى تثاقل وإعياء .. وبدأ الاستعداد للجلاء .

وكان المفروض أن يتسنى الحصول فى المدينة على سيارات اجرة تنقلهم إلى (رام الله) . وحتى إن لم ينجحوا فى الحصول على أكثر من سيارة واحدة فقط فقد كان فى وسع بعضهم أن يستقلها إلى رام الله ليعود منها بما يكفى لنقلهم جميعا .

ولكن عندما وصلوا إلى المدينة لم يجدوا بها أى أدوات من أدوات النقل ، من أى نوع .. فالسلطات العسكرية الإسرائيلية قد استولت عليها جميعا ، والعربات المزودة بمكبرات الصوت تذرع الشوارع آمرة الناس بمغادرة المدينة فى مدى نصف ساعة ؟.. ولذا كانت الشوارع غاصة بخليط متزاحم من الناس ، وكانت الكتائب فى كل مكان ، وقد أسكر الجنود النصر ، فهم على استعداد لإطلاق النار لأوهى الأسباب ، أو لغير سبب على الأطلاق !

وكان ثمة عدد من الفتيان والفتيات فىأزياء عسكرية يتجولون هنا وهناك حاملين فى كل يد من أيديهم دلوا مملوءا بساعات المعصم وأقلام الحبر وسائر أنواع الحلى والجوهرات .. وها هو جندى يقف عمدا أمام جماعة من النساء المحجبات

اللائذات بباب أحد الحوانيت ويفك أزرار بنطلونه ويشرع فى التبول تحت أنظارهم مباشرة . ولما أبصره زملاء له من الجنود يصنع ذلك الصنيع القبيح أخذوا يقومون بإشارات بذيئة يوجهونها إلى النساء المحجبات المحتشمات !

وكان بطرس وهو واقف على ناصية أحد الشوارع مع زوجته ماريان وابنه أنطون ، وأعضاء آخرون من أهل بيته ، قد رأى ذلك الحادث الشائن فتقلصت يده اليمنى على المقبض الفضى لعصاه التى يحملها على الدوام وقال :

ـ إنهم يأتون بكل ما من شأنه ان يذلنا !

ولكن ماريان وضعت يدها على ذراعه وقالت له :

ـ انهم لا يعرفون خيرا من هذا . هيا بنا ! فلعلنا نظفر بشىء نركبه ونحن فى الطريق .

ولكن لم تكن ثمة مركبة ولا دابة ولا طريق .

لا شىء سوى البرية ، وحرارة النهار التى أخذ يشتد أوارها .

ـ ٢ ـ

ولم يدرك الفلسطينيون على وجه التحقيق المدى الذى صمم مغتصبو أرضهم على الوصول إليه فى إذلالهم ، إلا بعد أن وجدوا أنفسهم فى البرية . فهناك جرد هذا الشعب الأبى الكريم من كل خصائص الإنسانية . وثمة ظروف لا يحتفظ المرء فيها إلا بشىء واحد هو تصميمه على البقاء . وفى تلك الظروف تتخلى الأمهات عن أطفالهن لتلتهمهم بنات آوى ، لأنهن عجزن عن حملهم خطوة أخرى !.. فى هذه الظروف عينها يترك الشبان ذويهم المسنين ليموتوا ، ويقدم الرجال والنساء على احتساء بولهم وبول أطفالهم . إنه الماء ! إنه شىء يرطبون به أفواههم الجافة وشفاههم المشققة التى انتشرت على حوافيها إطارات من الملح بيضاء ، مع ارتقاء الشمس فى كبد السماء .

وذات مرة ، عندما جلس أنطون وأمين ليستريحا قليلا فى الظل الهزيل الذى تلقيه خميلة من أشجار الزيتون انتظارا للحاق بقية أفراد الأسرة بهما ، قال الغلام الأعمى « أمين » لرفيقه :

ـ توجد صهاريج رومانية فى هذه البقاع . وفى بعض الأحيان توجد بها بقية من الماء . فاذا جئت إلى مجموعة من الصخور فعليك أن تنقب بينها . فحينما كنت متمتعا بنور عينى كان من عادتى أن أذهب مع أبى إلى البرية لنرعى قطعان

الماعـز ، وكذا نجد مثل تلك الآبار فيما بين (اللد) و (نعلين) . وتوجد أيضا أشجار الخروب . وقرون الخروب حلوة لذيذة الطعم ! الا تحبها ؟!.. الا صـبرا يا سيدى ، فحين نصـل إلى الوادى سيكون المسير أسهل بكثير علينا لأننا نستطيع أن نسير فى الوادى على امتداده إلى أن نصل إلى القرية . كيف حالك الآن يا سيدى ؟

ـ قدماى تؤلمانى بشكل فظيع . ولست أدرى هـل فى وسعى أن استمر فى المسير وانا أحمل سترة حلتى ؟

ـ لماذا لا تلقى بها عن كاهلك ؟ لماذا لا تنبذها ؟

ـ إنها أفضل حلة عندى . وإن أنا ألقيت بها لن أجد شيئا ارتديه عندما أصل إلى (رام الله) . والجو فى رام الله بارد فى الشتاء جدا كما تعلم .

ـ إن أبناء عمومتك هناك سيمدونك بكل ما ينقصك . ثم منذا الذى يدرى هل سنكون هنـاك فى الشـتاء أم لا ؟ إن الجيش العراقى سينضم إلى الفيلق العربى لتحرير فلسطين وسيلقى باليهود إلى البحر ! إن شاء الله !

فأمن أنطون على كلامه ، قائلا بلهجة آلية :

ـ إن شاء الله .

وكان حشد من الناس يستريح معهما تحت ظلال أشجار الزيتون ، مستلقين او منبطحين على الأرض الصخرية ، او جالسين وظهورهم إلى جذوع الأشجار ، محدقين فى شرود إلى

الأفق الرتيب الرحب من الأرض الحمراء والحصى الرمـادى والشوك الأبيض .. وحـدود التلال الصخرية الجرداء التى تتميز بها فلسطين يقف عندها البصر ليجدها طبقات فـوق طبقات ينتهى إليها السهل المترامى المتموج ، كأنه بحر تجمدت أمواجه !

وكان ثمة عدد من الأطفال الباقين على قيد الحياة ، وامرأة عجوز لا تكف عن الأنين فى طلب المـاء ، وجماعة من النساء جالسات القرفصاء محجبات الوجوه لا يتكلمن ، ولكن أيديهن الخشنة تنم على حقيقتهن بوضوح فهن ريفيـات .. وكانت هناك أيضا امرأة شابة جالسة وعلى صدرها طفلها الذى مات ، تحملق فيه بنظرة خالية من كل تعبير ، وطرحتهـا البيضـاء مسدلة على نصف وجهها .

ما من أحد فى الحقيقـة كان يلقى باله إلى سـواه . فكل مشغول بنفسه . وعلى مدى الأفق زرافات من الخلق . الوف من الناس على مدى النظر . كل واحد منهم يتحرك ببطء وجهد فى اتجاه واحد صوب الشرق . ووجوههم إلى الأردن .

واخيرا وصل والدا أنطون وسائر أفراد آل منصور إلى تلك المجموعة من أشجار الزيتون ، وارتموا فى الظل الحار . ونظر الصبى بقلق إلى أمه . وكانت أمه أصغر من أبيه بعشرين سنة وأقوى منه بنيـة بكثير ، ولكن قلقه كله كان بشأنها . فلديه إحساس بأن أباه على رغم سنه وعلـة قلبه إنسـان لا يلحقه الفنـاء . فبطرس آل منصور من أسرة فلسطينية

مرموقة . وابنه يؤمن بأنه رجل عظيم عن جدارة واستحقاق . وعظماء الرجال لا يسقطون على الأرض ولا يموتون . انهم قد يهانون ويذلون ، وتغتصب املاكهم على يد الأعداء ، وقد يطردون إلى البرية ، ولكنهم إذا ماتوا بسبب ذلك فمعناه أنهم تقبلوا الهزيمة . وأنفتهم وكبرياؤهم لا يسمحان لهؤلاء العظماء من الرجال بتقبل الهزيمة !

كان هذا التصور لأبيه العربى يريح أعصاب انطون . اما أمه الإنجليزية فهو يشعر أنه لا ينتظر منها أن تكون حائزة لهذا العنفوان الجسدى وتلك الأريحية المعنوية . ثم انها كانت فى حال بالغة السوء عندما غادروا البيت . ولذلك صلة ما بجنود (الهاجاناه) الذين وضعوا أيديهم على ابنة عمه نادية والخادمة رندا .

إنه يجهل تفاصيل المسألة ومحور الموضوع . ولكنه يعلم أنه كان ثمة صراخ كثير وهياج شديد ، وأن كل من فى البيت كانوا يبكون وينتحبون . وعندما غادر الجنديان البيت كان عليهما أن يقاتلا النساء اللواتى تعلقن بهما وخمشنهما بأظفارهن . وفزع انطون خشية أن يعمد الجنديان إلى شهر مسدسيهما والشروع فى إطلاق النار ، وبدا فى لحظة من اللحظات انهما فاعلان ذلك لا محالة !

لقد كان الأمر كله مروعا مزعجا . وعندما سمح للجنديين بالفرار انهارت أمه ، وكانت حالتها فى منتهى الفظاعة . كذلك كانت حالة نادية فظيعة . اما رندا فلم يكن لها هم سوى البكاء .

وشكت امه من صداع شنيع أصابها بعد انصراف الجنديين . وعلى الرغم من هذا الصداع شرعت فى اليوم التالى فى السير إلى (رام الله) ، فوق أرض لا يحلم بشر فيما عدا الرعاة بأن يطأها بقدميه . وبعد فترة من السير جعلت تمشى بمشقة وهى صامتة ، شأنها فى ذلك شأن معظمهم ، ولم تقبل نحوه عندما رأته يصاب بنوبة أخرى من نزيف الأنف .

غير أنه لم يحنق عليها بسبب ذلك ، فلم يكن فى يدها أن تصنع له شيئا ، بل لم يكن هناك ما يمكن أن يصنعه أى إنسان لأى إنسان . فكل واحد مشغول بنفسه . وهذا هو الهوان الذى فرضه اليهود عليهم عندما طردوهم إلى الطريق ليناضلوا ويتعذبوا كالبهائم فى تلك البرية .

وقال فى نفسه : إنهم يريدون أن يفرضوا علينا العذاب . يريدون أن يذلونا . وفى وسعهم أن يفعلوا ذلك بنا ولكن ليس فى وسعهم أن يفنونا . وظلت هذه الفكرة الأبية تسند روحه المعنوية مدة ، ولكن بعد ذلك حلقت فوقهم الطائرات السوداء الصغيرة ، وهبطت إلى ارتفاع منخفض ، فلم يعد ثمة شىء سوى الفزع والرعب والخوف المميت من الموت .

ومع تقدم النهار صار جليا ان كثيرين من هؤلاء الناس لقوا حتفهم على أفظع صورة . وكلهم من المسنين والأطفال الصغار ومن لا حول لهم ولا طول . وكانت أمه تبدو فى حالة فظيعة ، كأنما هى أيضا معرضة للفناء .. وها هى أمه قد ارتمت بجواره الآن ، ولأول مرة منذ غادروا البيت منحته ابتسامة يسيرة . وحتى فى الليالى الأخيرة الفظيعة عندما قذفت المدينة بقنابل

المدافع والطائرات — حينما أطبقت عليها الكتائب اليهودية — كانت تتمكن دائما من الافترار عن ابتسامة عارضة كى تبقى روحهم المعنوية عالية .

لقد كان الحال عصيبا جدا ، ولكنهم لم يواجهوا ذلك الخوف الشخصى المميت من الموت ، ذلك الخوف الذى حل بهم مع أنباء المذبحة فى الجامع الصغير ومع التعرض للهلاك فى البرية حين أخذت تلك الطائرات السوداء اللعينة تطير على ارتفاع منخفض بصوتها الغريب المختلف عن كل صوت آخر .

وقالت ماريان :

— لا بد أن نكون الآن فى منتصف المسافة إلى (نعلين) .

وقد سمعت بعضهم يقولون إنهم يستطيعون أن يروا الوادى بالفعل . اننا عندئذ نستطيع على الأقل أن نعرف أين نحن . فالسير على غير هدى هو الذى ينهك قوانا ، ونحن لم نفعل شيئا سوى السير صوب هدف غامض فى مكان لا نعرف أين هو !

وكانت قصيرة القامة ، نحيفة ، داكنة الشعر ، ذات ملامح حسنة وعينين زرقاوين زرقة عجيبة ، ورثها أنطون عنها . وكان من الممكن أن يظنها الناس عربية — وكثيرا ما ظنوها — فلم يكن فيها شىء إنجليزى مميز ، بل ولا أوربى مميز ، وكانت فى الأحوال العادية تبدو أصغر سنا من أعوامها التى ناهزت الأربعين ، أما الآن فهى تبدو عجوزا إلى درجة تكاد تجعلها امرأة أخرى ، وتحت عينيها ظلال سوداء من أثر الإعياء العقلى والبدنى ، وشفتاها مشققتان ينزف منهما الدم . وثوبها الرقيق

المصنوع من القطن ، ذلك الثوب الذى كان ناضرا قشيبا عند بداية المسير ، غدا خرقة كثيرة الأوضار مبللة بالعرق .. كان مظهرها أشبه بمظهر امرأة غجرية قضت ليلتها نائمة فى حفرة ، وهى التى كانت فى العادة نموذجا للأناقة والهندام !

ونادية التى جلست بجوارها ، بدت أيضا زرية الثياب ، ومحياها الشاحب الجميل شبيها بوجه فتاة تسير فى نومها ، فهى تحملق فى الفضاء ولا تتكلم !

أما بطرس وأخوه فريد فجلسا على مسافة قليلة فوق صخرة صغيرة ملساء ، وقد اعتمد بطرس على عصاه ذات المقبض الفضى ، ورأسه الجميل منحرف إلى الوراء قليلا وهو ينقب بعينيه فى الأرض الممتدة حتى حافة الأفق عن الوادى الذى يوصل إلى جنوبى قرية (نعلين) حيث ينبغى أن يقضوا الليلة . وحيث يروون ظمأهم إن لم يجدوا شيئا يأكلونه .

لقد ازداد وزنه فى السنوات الأخيرة . بيد أنه لم يزل ، فى الثانية والستين من عمره ، رجلا وسيما مهيب المنظر ، وفى محياه ما ينم على الفكاهة وعلى الحزن معا ، مع هيبة عظيمة . أما شقيقه فريد — الأصغر منه بعشر سنوات تقريبا — فيشبهه ، وإن كان أقل منه وسامة ومهابة ، فيه شىء من الفكاهة ولكن بدون ذلك الأسى الغامض الذى يعتبر عنصرا هاما فى إضفاء ذلك السحر الخاص وتلك الحساسية على الشقيق الأكبر ، وكانت ماريان تميل إلى شقيق زوجها وتشعر نحوه بالإعزاز ، ولكنها لم تكن حرية أن تتزوج شخصا آخر على الإطلاق سوى بطرس .

وكانت «ماجدة» زوجة فريد امرأة وسيمة تميل إلى البدانة ، وقد جلست على العشب بجوار (نادية) تحاول أن ترفه عن الطفلين اللذين راحا ينتحبان من شدة الظمأ والإعياء . وكان أكبر الطفلين فتاة صغيرة فى الرابعة من عمرها رقدت على الأرض الوعرة وأنشأت تبكى فى تعاسة ملحة .

ونظرت (ماجدة) بيأس صوب سلفتها وقالت لها :

ـ لست أدرى كيف سيمكننا أن نصل بالطفلين إلى هناك .

فرفهت (ماريان) عنها قائلة :

ـ لم يبق أمامنا إلا ساعتان .

وكانت تعلم أن المسافة قد تمتد إلى ثلاث ساعات على الأقل . ولكن لفظ ساعتين كان يبدو أقل بكثير من لفظ ثلاث ساعات ، وحين تنقضى الساعتان ويكون ثلثا الطريق قد قطعا فمن الممكن عندئذ أن يجد الإنسان القوة على قطع المسافة الباقية . ثم إن حرارة النهار ستكون قد قلت أيضا ، وذلك من شأنه أن يساعد كثيرا على تخفيف الحالة .

وقال (انطون) فى أمل :

ـ لعلنا نعثر فى طريقنا على صهريج من الصهاريج الرومانية . فـ (أمين) يقول إن بعض هذه الصهاريج موجودة فى هذه الأنحاء ، وقد يكون فيها ماء .

وتساءلت (ماريان) فى لهجة يائسة : « كيف يمكن لهم أن يستخرجوا الماء من باطن تلك الصهاريج العميقة حتى إن وجدوا صهريجا منها غير جاف . فالماء الموجود بها لا بد

ان يكون على بعد سحيق » .. بيد أن ما فى صوت الغلام من اللهفة ـ وإنها للهفة شابة يافعة للغاية ـ جعل قلبها لا يطاوعها على تثبيط همته ، فقالت :

ـ علينا إذن أن نفتح عيوننا جيدا لنتسقط مواضعها .

وكان من السهل على المرء أن يرتد آدمى المشاعر وهو جالس هناك تحت أشجار الزيتون ، بعيدا عن عملية الإفناء ، وسحق الروح المعنوية ، وإنهاك القوى فى ذلك الارتحال الإجبارى !.. إن الظمأ المستعر لم يزل على حاله ، ولكن وطأته غدت أقل فظاعة بعد أن كف الجسد عن التصبب عرقا وهو يبذل المجهود فى السير المهلك ، واستراحت الأقدام من الاحتكاك الفظيع الذى أصابها بالتهابات وفقاقيع جعلت من كل خطوة عذابا مقيما لا يمكن احتماله ، ومع هذا فلا بد من احتماله، لأن ذلك هو المهرب الوحيد من الاستلقاء على الأرض والموت بضربة الشمس والعطش !

وكانت ثمة راحة أيضا من الفزع ، إذ انقضت عليهم الآن فترة من الزمن لم يروا فيها جنديا إسرائيليا ولا طائرة غادرة من طائراتهم . ولم يعد أحد يطاردهم ليوغلوا فى البرية كما تطارد كلاب الصيد فرائسها . ولكنهم كانوا قد أبعدوا بما فيه الكفاية عن طريقهم بحيث صارت تفصلهم عنه أميال عديدة ، وليس أمامهم إلا الاستمرار فى خوض البرية .

إن مجرى الوادى الصخرى سيكون عذابا من نوع جديد لهم عندما يصلون إليه ، فتلهب حجارته الأقدام المتورمة والدامية ،

فليس ذلك الوادى إلا مجرى نهر أصابه الجفاف . ولكن له مزية لا يستهان بها ، فهو طريق واضحة المعالم لا يضل من يسير فيها ، وبذلك يتخلصون من الضرب على غير هدى . انهم عندئذ سيعرفون على الأقل انهم بعد ساعة أو ساعتين من المشى لا بد أن يصلوا إلى قرية (نعلين) ، وهى القرية التى لم تزل فى أيدى العرب .

كان كثيرون يأتون ويذهبون ، وبعضهم يستريح فى العراء فى ظل الصخور والحصى الأملس الضخم ، وإنه لظل هزيل . فالحركة دائبة لا تنقطع ، والسهل المتماوج مزدحم بالناس كزحام شوارع المدن المأهولة فى أيام المواسم . وانه لحشد من الناس متعدد الألوان حقا ، يبلغ تعداده عشرات الألوف من الأنفس فى خليط عجيب ، ففيهم الرجال والصبيان ممن يرتدون القمصان البيضاء والبنطلونات ، وفيهم من يرتدون الزى العربى التقليدى والعقال المعروف . وفيهم نساء وفتيات فى زى أوربى حديث الطراز ، ومنهن من ترتدى زيا أسود أشبه بزى الراهبات ، ومنهن من تلبسن الزى الفلسطينى التقليدى الموصوف فى التوراة ، وهو زى طويل ضاف مثقل بالوشى والزخارف ، وعلى ظهورهن تتدلى الطرح البيض التى تغطى رؤوسهن . والمسنات منهن يرتدين الزى الفضفاض الأسود أو الرمادى وقد عصبن رؤوسهن بالمناديل . أناس من كل لون وصنف ، فيهم القرويون وسكان المدن . فيهم الفقراء وأهل اليسار ، فيهم المسلمون والمسيحيون . وما أكثر الأطفال فيهم . ففى كل موضع أطفال يحملهم أهلوهم ، أو يجرون أقدامهم ممسكين بذيول أمهاتهم . وكلهم صغار ، سود الشعر ، سود

العيون ، وهؤلاء هم الجيل الصاعد من الفلسطينيين . جيل يشب بلا وطن ، وبلا ديار ، وبلا مستقبل ، وقد كتب على كثيرين منهم أن يشبوا فى مسغبة المعسكرات وتعاستها ، بل إن كثيرين من هؤلاء الصغار الأبرياء كتب عليهم أن يموتوا هاهنا فى البرية !

وكان بعض هؤلاء الناس المتباينى التكوين لهم أقارب فى (رام الله) — كما هو حال آل منصور — وهؤلاء هم المحظوظون ، وهم قلة قليلة . وأقلية منهم أيضا من لديهم أموال وممتلكات فى ذلك الجزء من فلسطين الذى أصبح الآن إسرائيل . أما الأغلبية الساحقة فلا يملكون إلا الثياب التى يرتدونها وإيمانهم بالله الذى لا يغفل ولا ينام . والجميع قد خلفوا وراءهم الأراضى التى كانت عائلاتهم تمتلكها وتزرعها منذ قرون لا تحصى . فهم جميعا — رجالا ونساء — أناس كادحون ، يتجه كل كفاحهم الآن لمقاومة الفناء تحت هذه الشمس المحرقة فى هذا السهل الذى يجتازونه بأقدام متورمة داخل احذية أبلتها الصخور والأشواك !

إن هذه الأرض الموحشة لا يجسر البدو أنفسهم على السير فيها معرضين لضربة الشمس والهلاك عطشا وإعياء . ومع هذا يتحرك سوادهم الأعظم متعثرين فى كل خطوة يخطونها فينهضون فى صمت ويواصلون التقدم فى عناء كأنهم تماثيل آلية صماء .. لأنهم يعلمون أن البديل الوحيد للتقدم إلى الأمام هو الموت المحقق . وإرادة الحياة تلازمهم إلى آخر نفس من أنفاسهم المكروبة اللاهثة .

- ٣ -

وجال فى ذهن المرأة الإنجليزية هذا الخاطر :

ــ لو أننى لم أتزوج هذا الرجل الفلسطينى منذ أربعة عشر عاما لما كنت الآن هاهنا ، فى هذه المحنة !

ولكن الشعلة الصغيرة التى اندلعت من هذه الفكرة لم تلبث ان اضطربت ثم خمدت أنفاسها تماما أمام الفكرة المقابلة لها ، فقالت تحدث نفسها :

ــ لو لم أتزوجه لعشت فى إنجلترا طيلة تلك المدة ، ولكان من الجائز جدا ان القى مصرعى فى إحدى الغارات الجوية التى شنها الألمان !

ونظرت صوب زوجها ، فاذا هو جالس فوق صخرة ملساء متجها بجسمه إلى الأمام ، وكلتا يديه فوق مقبض عصاه الفضى ، وقميصه الأبيض المبلل بالعرق لاصق بجسده ، وتحت عينيه جيوب ، فبدا فى تلك الجلسة مسنا مريضا . ومع هذا كله لم تزل عليه سيما ذلك الصمت المهيب ، ومخايل ذلك السلطان الذى جعل الناس ينادونه دائما بقولهم « يا بك » .

وقالت فى نفسها إنه قاسى كثيرا جدا . فكيف يمكن أن يعيش ؟.. فان لم يكتب له أن يعيش فكيف استطيع أنا أن أعيش ؟ إن قوتنا رهن بأيامنا وأحوالنا . كان أبى يقول إن تلك الحكمة رثة ابتذلها الاستعمال ، ولكنها صحيحة صادقة .

فاللهم اجعلها تصدق أيضا !.. أعطنا القوة كى نستطيع مواصلة السير .. مسافة أخرى قصيرة .. ومدة أخرى أطول مما استطعنا .. ولو تلك الساعات القليلة التى سيستغرقها هذا السير المهلك ! أعط (بطرس) القوة يارب ! (بطرس) على الخصوص يارب ! أما أنا و (أنطون) فسيكون فى استطاعتنا أن نتدبر ، أحوالنا .. أما إن لم يستطع (بطرس) أن يقاوم ويثبت لهذه المحنة ، فلن يكون فى بقائنا نحن جدوى يارب ..!

أما (بطرس) فلم يوجه كلاما إلى زوجته أو ابنه . بل ولا حتى لأخيه ، أو لأى أمرىء آخر ، وهم جالسون تحت ظلال أشجار الزيتون وسط البرية . بل إنه لم يحول رأسه لينظر اليهم .

ولم يكن هذا عن عدم اكتراث منه بعذابهم أو مدى قدرتهم على مقاومة الفناء المحدق بهم ، بل لأن المأساة الجماعية التى كانت دائرة من حوله ، والتى لم تكن مأساته هو ومأساة أفراد أسرته إلا جزءا صغيرا جدا منها ، كانت نكبة إنسانية ضخمة، وكارثة هائلة صبت على شعب برىء .. هائلة جدا إلى الحد الذى جعل رثاءه لما يصيبه ويصيب آله الأقربين يتوارى بين طياتها الجهنمية !

إن تشريد الألوف المؤلفة من البشر رجالا ونساء وأطفالا ، والإلقاء بهم إلى جوف برية التيه ، لم يكن مذبحة أهون شأنا من تلك المذبحة الأخرى التى تمت بنيران المدافع الرشاشة وأسنة الحراب ضد النساء والأطفال فى قرية (دير ياسين) فى اليوم العاشر من أبريل ، ولا هى أهون من حصد أرواح ثلاثمائة رجل فى الجامع الصغير فى (اللد) منذ ثلاثة أيام ..

فهى مذبحة للعجائز والأطفال الرضع الذين تحملهم أمهاتهم فوق صدورهم ، وللصغار الذين لم يتقنوا بعد الكلام والذين لم تثبت بعد فى الخطو على الأرض أقدامهم الصغيرة .. إنها مذبحة الأبرياء !

كان من اليسير عليه أن يستعين بقوة إرادة حديدية للسيطرة على نفسه كى يتحمل ذلك العذاب البدنى . والحق أن عذابه الجسدى كان من الشدة بحيث كان فى كل لحظة على شفا الانهيار . إلا أنه كان يأبى بعناد وصلابة أن يموت كما تنفق الدابة فى هذه البرية . من هذه الكبرياء العنيدة استطاع أن يستمد رصيدا من القوة يعينه فى آخر مرة على الاستمرار فى المسير على نحو ما .

اما عذابه الداخلى ، عذابه المعنوى ، فهذا هو العذاب الذى لم يكن لديه أدنى رصيد من القوة يستعين به على مواجهته . فالفظائع التى كتب عليه أن ينبرى لمواجهتها فى الساعات الأربع والعشرين الأخيرة كانت أكثر مما يطيق . كانت ثمة تلك الفظائع التى عاناها فى المسجد الكبير ، وذلك الظمأ الذى لم يستطع أن ينقع منه غلته لا فى الليل ولا فى النهار ، وبذاءة اولئك الجنود وهم ينجسون الصهريج ثم يدعونهم ساخرين هازئين للشرب من مائه ، ويحولون بينهم وبين دورات المياه . فلما انجابت سحابة النهار وقلت وطأة الحر لم يجد الرجال المعتقلون بدا من قضاء ضروراتهم الجسدية لصق جدران الفناء الملحق بالمسجد وفى الأركان ، تحت أنظار بعضهم البعض ، فصارت الرائحة الكريهة شيئا خانقا للأنفاس . يضاف إلى

ذلك ما استولى عليهم طول الوقت من الخوف والفزع والتوجس : فمن يدرى ماذا يمكن أن يحدث لهم فى أى لحظة من اللحظات على حين غرة ؟ ومن منهم يدرى ما الذى يمكن أن يحدث ـ أو يمكن أن يكون قد حدث فعلا ـ لأسرهم أثناء غيابهم ؟ وما معنى هذه الانفجارات المتقطعة التى تنبىء عن إطلاق المدافع الرشاشة ، وأن أصواتها لتترامى إليهم من جوف المدينة .. ؟!

وفى إحدى المرات طالت هذه الانفجارات فى خيط متصل .. ولم يعرفوا جلية الأمر عندما أطلق سراحهم فى صباح اليوم التالى ، فعرفوا عندئذ أن هذه الطلقات كانت إيذانا بالمذبحة الرهيبة فى الجامع الآخر ، ذلك الجامع الذى كان (فريد) والآخرون يريدون بالأمس ان يذهبوا إليه ، وألحوا فى ذلك .

ولقد أوشكوا أن يذهبوا إلى هناك فعلا .

يا للصدفة المذهلة ! ويا للرعب المصمى !.. ثم بعد ذلك صدر إليهم الأمر بالرحيل « وإلا فلن تساوى حياتكم فلسا واحدا ! » . إنه لن ينسى ما عاش سحنة تلك المرأة المجندة وهى تطل عليه من نافذة مقعد القيادة فى السيارة ـ سيارته هو ! ـ لتبصق وتنفث ذلك الغل المسموم فيه . لقد عاش عمره كله يحب النساء ويكرمهن ويجلهن ، ويرى فيهن المثل الكامل للرقة والدماثة والحنان . فهن فى نظره مخلوقات تنيض عطفا ، فهن الزوجات وهن الأمهات . ولكن ها هى امرأة فى خاتمة المطاف تبصق عليه .. ولم يحدث له مثل ذلك من قبل ،

حتى ولا من المرأة التى تركته .. وبعد ذلك بدأ هذا الارتحال القاسى فى البرية فى حر الشمس اللافح ، وناهيك بشمس يوليو الرهيبة الضارية فى ذلك السهل الساحلى ، وتلك الطائرات الصغيرة السوداء تنقض عليهم وتطير على ارتفاع منخفض جدا ، لتذود الناس بالإرهاب والفزع فتبعدهم عن الطريق ليوغلوا فى البرية ، ثم تطاردهم هناك ليزدادوا فى البرية إيغالا حتى يصلوا إلى الجبال .

ذعر وفزع . وإلغاء للمقومات البشرية إلغاء متعمدا يفرض على أولئك البسطاء الأبرياء فرضا . وكأنما لم يكن كافيا لأولئك الأشرار أن يسلبوهم وطنهم وبيوتهم وأرضهم وكل ممتلكاتهم المادية ، فراحوا يسلبونهم أيضا كرامتهم الإنسانية. بل وما أكثر من سلبوا منهم أرواحهم ذاتها !

وكان (بطرس) متنبها إلى المرأة التى كانت جالسة عن كثب منه تحت أشجار الزيتون وعلى صدرها طفلها الذى مات عطشا ، مثلما فطن من قبل ـ أثناء المسير ـ إلى تلك المرأة الأخرى التى أطلقت صرخة ضارية وهى تلقى بفلذة كبدها حيا إلى قاع حفرة فى تلك البرية المتأججة بحر الهجير ، لأنها لم تعد قادرة على حمله خطوة أخرى ، ولم تعد قادرة على الاستمرار فى الحياة على المستوى البشرى بعد أن ذهب بعقلها عذاب الظمأ والإعياء !.. وكان متنبها أيضا إلى المسنين من الجنسين الذين نفدت قوتهم فتهاووا على الأرض ، فتركهم بنوهم وذووهم ليموتوا بعد أن يطلقوا القلة الواهية من أنفاسهم الأخيرة حيث سقطوا ، ومرت بهم الجموع الذاهلة



وكان بطرس متنبها الى المرأة التى كانت جالسة عن كثب منه تحت أشجار الزيتون

زاحفة نحو هدفها المجهول ، وداسوهم بأقدامهم مثلما كانت عجلات الرومان المتوحشين تدهم المنهزمين فى العاب السيرك على عهد الأباطرة .

أجل ، كان (بطرس) متنبها للناس من حوله فى جمود وعدم مبالاة بالذين يقدمون منهم — رجالا ونساء — على ضم راحات ايديهم ليجمعوا فيها بولهم كى يشربوه شرب البهيم ، بل ويجمعون ايضا فى راحاتهم بول سواهم ، يقاتلونهم عليه ليظفروا لأنفسهم بقطرة من ذلك السائل الثمين الذى أصبح على دنسه مرادفا للحياة !

وكان متنبها أشد التنبه وأعمقه لزوجته وهى تظلع فى مشيتها بألم واضح فى صندلها الممزق من حجارة البرية ، ومتنبها أيضا لما كان مرتسما بجلاء من أمارات التعاسة على محياها . ولكن ما من شىء يستطيعه لها برغم كل ما يكنه لها من الحب والرعاية والإعزاز . وكان هذا الإحساس بالعجز عنصرا من أقسى عناصر عذابه الداخلى .

وكان متنبها كذلك لمسير ابنه الشاق المتثاقل وقد أطبق يده على يد الغلام الأعمى ، وخيل إليه أن تلك اللمحة الخيرة هى الشىء الوحيد الصالح الطيب فى كل هذا الجحيم الذى يتلظى بألسنة سعير من الحر ، والعذاب ، والظمأ ، وفقدان الإحساس بالغير ، لأن كل امرىء كان مشغولا بذات نفسه عن كل من عداه ، منصرفا للنضال فى سبيل البقاء فى هذه الحياة . إن ابنه (أنطون) يستحق وحده على الأقل أن يبقى حيا مهما جرى الهلاك على غيره ممن حوله !

وارهقه القلق على ابنه وقد بلغ من التفكير فى أمره هذا المبلغ ، واستمد من ذلك زادا من القوة فنهض ، واستأنفوا مسيرهم . وفى هذه المرة أتت (ماريان) ومشت بجانبه . وقالت له وهى تحاول بث الهمة فى نفسه :

— سنصل بعد قليل إلى الوادى إن شاء الله .

واستقرت نظرته عليها برهة ، وقال لها بالإنجليزية :

— سأتمكن من المقاومة إلى أن نصل . لا تقلقى على . كيف حالك أنت ؟

— أنا بخير .

وبعد بضع دقائق تخلفت عنه لتحمل أحد طفلى (نادية) . ولكنها بعد ذلك تعثرت كمن أصابها العمى من شدة الإجهاد ، لأن حمل الطفل كان أقوى من احتمالها ، فكادت تصاب بالإغماء ، لولا أن شخصا ما أخذ منها الطفل وهى مغمضة العينين .

وكان هذا الشخص فريد .. الذى قال لها يشجعها :

— قد يوجد صهريج من صهاريج الرومان تحت هذه المجموعة من الصخور التى ترينها أمامنا هناك .

— من الخير لنا الا نتعلق بالآمال الكاذبة .

فلم يعقب على كلامها ، بل حمل الطفل الباكى على كتفيه وغذ السير ، بينما مشت (ماريان) من النسوة الأخريات .. وقالت ماجدة :

ـ إذا لم نجد ماء عندما نصل إلى هذه الصخور فانى ميتة لا محالة ! لم يعد فى وسعى أن أواصل المسير وأنا ظمأى . آه ! بحق السماء !

ورفعت إحدى يديها ولطمت الطفل الآخر المتعلق بها على صفحة وجهه ثم دفعته عنها بعيدا فى غلظة ، فسقط الطفل على الأرض باكيا . وصاحت ماجدة بضراوة .

ـ لم يعد فى استطاعتى الاستمرار فى حمله !

ثم انفجرت تبكى بكاء هستيريا وهى تقول :

ـ أنا انتهيت ! لا أستطيع المسير !

فحملت ماريان الطفل الباكى وحاولت أن تسرى عنه ، ثم قالت لماجدة :

ـ سنصل إلى الماء بعد قليل . لقد انتهى أسوأ جانب من الطريق الآن . تشجعى . تشجعى !

وحملت الطفل على ظهرها ومشى الجميع قدما .. مشى الحشد الهائل المتدافع ببطء ومشقة ، ووجوههم جميعا صوب الشرق ..

وعندما وصلت جماعة آل منصور إلى الصخور كان جمع كبير جدا من الناس قد ازدحموا حولها من قبلهم . وشق أنطون والغلام الأعمى طريقهما بين المتزاحمين وراحا يناوران ويداوران باضرار إلى أن نفذا إلى المقدمة من تلك الصفوف المتراصة . وكانت الصخور فوق نشز من الأرض مرتفع بعض الشىء وفيما

بينها بئر كان الرومان قد احتفروها . وهى بئر غائـرة إذا نظرت فى جوفها الفيت لمعان المـاء فى القاع . وكان الناس قد عقدوا مناديلهم وجزازات من ثيابهم بعضها ببعض وأدلوا بها فى جوف البئر ، وكانوا بعد ذلك يخرجونها وقد تلوثت بالطين، إلا أنه طين بليل . فكانت العـائلات تتقاسم قطع القماش الندية فيما بينها وتمتصه . والطلب على هذه المناديل الموحلة شـديد جدا ..

وكانت النساء يستخدمن الطرح التى يغطين بها رءوسهن ، فتشاور الصبيان فيما بينهما وانتهى رأيهما إلى أنهما حتى فى حالة تعاونهما معا لن يستطيعا صنع حبل يصل طوله إلى مستوى الماء البعيد الغور . ولـكن إذا أقدمت جميع نسـاء جماعتهما على تمزيق جزازات من ثيابهن فسيكون فى وسعهما ربط هذه الجزازات بعضها ببعض ليصنعا منها حبلا يفى طوله بالغرض المنشود !

وعندما عادا إلى بقية الجماعة كانت رندا تحمل الطفل ، أما ماريان فكانت لم تزل مشغولة بماجدة التى لم تفارقها حالتهـا الهستيرية . وقال أنطون :

ـ فى البئر ماء .. ماء مختلط بالطين إلى درجة كبيرة جدا . والناس يدلون بحبال من مناديلهم وجـزازات ثيابهم فتخرج سوداء من الطين ولكنها ندية بالماء . ويقبل الناس على مصها .

فصرخت ماجدة :

ـ ومن ذا الذى يريد أن يمص الطين ؟ انى أفضل على هذا ألف مرة أن أشرب ماء تبولى !

وكانت ماريان قد وصلت من الاعياء والهبوط إلى مدى لا مزيد عليه ، فأحست فجأة أنها لم تعد تطيق أكثر مما أطاقت ، وإذا بها تلطم ماجدة على صفحة وجهها ، فترنحت وسقطت على الأرض ، ثم جلست تبكى بهدوء وقد ثقلت عليها تعاستها ، غير أنها برئت من الهستيريا . وارتمت ماريان بجوارها وراحت تمزق هدب ثوبها . ولما فرغت منه شرعت تعمل التمزيق فى هدب ثوب نادية ، وأنطون يعاونها فى ذلك .

ولبث الغلام الأعمى معهن، فحين مضى أنطون إلى الصخور ومعه ذلك الحبل المصنوع من جزازات الثياب . واستغرق غيابه بعض الوقت، ولما عاد ألفى أباه وعمه قد لحقا بالجماعة. وقسم الحبل قسمين ، فحظيت النساء بقسم منه رحن يمتصصن ماءه ، وحظى الرجال بالقسم الآخر . وجعل الجميع من فرط سرورهم بترطيب حلوقهم وشفاههم الجافة بذلك البلل المبارك لا يفطنون إلى طعم الطين المجوج .

ولم يكن قرب الصخور ظل على الاطلاق ، فلم يمكثوا فى ذلك الموضع طويلا ، وسرعان ما اقتربوا من التلال القاحلة الصحراوية ثم دخلوا خورا عريضا قريب الغور .. وكان هذا هو الوادى المنشود ، وقد بلغوه فى النهاية .. غير مصدقين !

ـ ٤ ـ

وبدا الوادى جحيما من العذاب لا يقل عن جحيم البرية نفسها ، والصخور فيه تملأ القاع ، حتى أن بعض الناس فضلوا السير على الجانبين شاقين طريقهم بين الحجارة وكتل الصخر ، ولكن هذا لا ينتقص من مزية الوادى باعتباره طريقا واضحة المعالم ، فهو من هذه الناحية ليس اقل شأنا من خطوط السكك الحديدية التى يتبعها الناس فى الفيافى كى لا يضلوا .. وسرعان ما التأم شمل الجموع الحاشدة شيئا فشيئا فى ذلك الوادى ، وتفرقوا جماعات تسير تباعا كأنهم موكب مظاهرة هائل يمتد مسافة بعيدة لا يكاد يدرك آخرها الطرف .

وفى هذا الموسم كانت قد بدأت ثمار التين الشوكى فى الظهور، وتفتحت أزهار فى مجموعات من نباتات الدغل قرمزية اللون خففت من رتابة التربة الحمراء والحصى الرمادى الذى يكسو البرية . ثم فجأة تراءت للناس أشجار صغيرة متناثرة ، لونها بين الرمادى والأخضر ، هى أشجار الخروب الصغيرة الضامرة . ولكن قرونها الطويلة البنية اللون التى كانت تتدلى من أغصانها أثلجت الصدور التى كاد يقضى على أصحابها الجوع والظمأ .

واشتدت قبضة يد أنطون على يد الغلام الأعمى . وصاح :

ـ أشجار الخروب . هيا بنا !

ـ أين هى ؟ فوق الوادى ؟



ــ أجل . وقريبة منه جدا . وها هم الناس يتقاطرون صوبها متزاحمين كأنهم جيوش النمل !

ــ اذهب أنت ودعنى . سيكون ذلك أسهل عليك من غيرى . سأنتظرك هنا .

وجلس أمين على الأرض القرفصاء تأهبا للانتظار . أما أنطون فحين وجد نفسه قد تخفف من جر ثقل الغلام الأعمى ، صعد جانب الوادى وأسرع يعدو تلك الياردات القلائل صوب أقرب شجرة خروب . وكان بضعة رجال وغلمان قد تسلقوها بالفعل . ولكنه تعلق بأقرب غصن به قرون مدلاة وقطع عددا منها . ولكن شابا كان جاثما فوق غصن أعلى منه ركله بقدمه وانتهره غاضبا وسبه ، طالبا إليه أن يبحث لنفسه عن شجرة أخرى .. غير أن أنطون لم يبال بالركل وظل متشبثا بغنيمته وراح يجمع مزيدا من قرون الخروب الثمينة ويحشو بها جيوب بنطلونه وداخل قميصه المبلل بالعرق . وعندئذ صوب الشاب الجاثم من فوقه ركلة شديدة إلى وجهه بكل وحشية فأرغمه على النزول .

وكان الظمأ قد قتل إحساس الناس بالجوع . ولكن الأيام الأخيرة التى تخللها الضرب بالقنابل كانت أيام مجاعة لم يظفر فيها معظم الناس بما يتبلغون به .. والذين حظوا بفنجان صغير من القهوة التركية وبضع زيتونات فى ساعة مبكرة من هذا الصباح يعتبرون بلا شك من القلة المحظوظة !

وكان أنطون جائعا جدا ، وأدرك أن أمين جائع أيضا . ثم من يدرى هل سيجد كل هؤلاء شيئا يأكلونه عندما يصلون فى آخر المطاف إلى (نعلين) أم لا ؟ .. وحين عاد إلى بطن الوادى ألفى أمين فى انتظاره حيث كان قد تركه ، ولكن ذويه ومن يلوذون بهم كانوا قد سبقوهما الآن بمسافة طويلة وغابوا عن النظر . وأخذ أنطون يعطى أمين القرن بعد القرن من قرون الخروب وهما يشقان طريقهما قدما ويمضغان الفصوص الصلبة ، الحلوة المذاق ، التى تشبه فى طعمها وقوامها التمر الجاف ، ويحسان لذلك بحرارة تسرى فى جسديهما اليافعين . ولم يلبث أنطون بعد قليل أن كف عن الأكل كى يبقى ما معه لبقية أفراد الجماعة عندما يلحقان بهم . واحس الأعمى ان صاحبه امتنع عن مضغ الخروب فأدرك ما دار بنفسه ولم يطلب من صاحبه مزيدا .

وكانت الشمس قد جنحت الآن إلى الغروب . ومع أنهما كانا يتصببان عرقا وهما يتعثران على طول السكة الصخرية، إلا أن الحر لم يعد يعنف بهما بمثل الشدة الوحشية السابقة. وكان الأطفال من حولهما مستمرين فى البكاء والنحيب بصورة تثير الحسرة والاشفاق . أما المسنون فما زالوا يتوقفون كلما ساروا بضع ياردات ليستجمعوا أنفاسهم اللاهثة . ولكن أحدا منهم لم يعد يتهالك فيخر على الأرض كما حدث فى وقدة الهجير .. فمن خارت قواهم سقطوا فى البرية وانتهى أمرهم منذ ساعات . أما الذين لم تزل تحملهم اقدامهم فى بطن الوادى

أو على جانبيه فكل الدلائل تنبىء عن وصولهم بعد قليل إلى (رام الله) !

* * *

و (نعلين) قرية صغيرة جدا مقامة على مدرجات جانب التل، فوق الوادى المتصل بوادى (اللد) ، ويحف بالقرية الطريق العام . أما جانب الوادى من خارجها ففيه نبع صخرى يستقى منه أهل القرية ويسقون دوابهم وماشيتهم . وعن كثب منه بضعة من أشجار التين ، أما حيث تنحدر الأرض إلى مستوى الوادى تحت مدرجات التل فثمة مصاطب عريضة زرعت فيها خمائل من أشجار الزيتون .

.. وعلى هذه المحلة الصغيرة تدفق مائة الف تقريبا من الجياع العطاش المنهكين الذين أصابهم مس من الخبال لفرط ما قاسوه من مشقات الحر والظمأ ، وقد غص بهم الشارع الأوحد فى القرية فانقلب أشبه بنهر تسرى فيه موجة عريضة زاحفة متصاعدة كموجات المد ، قوامها اجساد بشرية يقطر منها العرق . وفى نهاية ذلك الشارع ـ فى أعالى المدينة ـ وقفت تلك الحشود كأنها الجدار الصلب المتراص البنيان حول الينبوع الصخرى ، بحيث لم يجد المتأخرون موضعا لأقدامهم أو فسحة من الأمل فى الوصول إلى ذلك الهدف المنعش .

وقال أنطون :

ـ قد تمضى ساعات قبل أن نقترب من هذا الينبوع . فهيا بنا يا أمين ندور حول نطاق القرية كى نصل إلى طرفها

الآخر ، عسى أن نجد هناك قلبا رحيما نطرق بابه فيقدم إلينا كوب ماء بارد ولقمة نتبلغ بها .

وراحا يشقان طريقهما بين الحوارى والأزقة الضيقة ، ثم بين الأسيجة النباتية وصفوف نبات التين الشوكى . وصادفتهما فى الطريق جماعة صغيرة من الكلاب الهزيلة الضالة والقطط التى تتسقط فضلات الطعام من الطرقات . وفيما عدا هذا لم يجدا علامة من علامات الحياة . فقد نمى إلى علم أهالى القرية نبأ سقوط (اللد) ففروا هاربين على طول الطريق إلى (رام الله) .

وكانت ثمة حوانيت قليلة مفتوحة . ولكن أصحابها تركوها مفتوحة قبل هجرتهم لأنهم لم يجدوا مبررا لإغلاقها بعد أن حملوا معهم كل ما كان فيها من شتى صنوف السلع .

وفى وسط هذا التيه من الأزقة والمنعطفات وصل الغلامان إلى مخبز صغير معتم لا يكاد يزيد حجمه على حجم كهف من كهوف الجبال . وكانت رائحة إنضاج الخبز تتصاعد من داخله. فهل ترى بقى الخباز بمفرده وتخلف عن الهجرة من تلك القرية المقفرة ؟

وأطل أنطون برأسه يخترق بنظراته العتمة التى بالداخل ، فرأى وهج التنور الأحمر ، وقد وضعت فوق سطح التنور من الخارج كومة صغيرة من أرغفة مبططة مستديرة من نوع الخبز الذى يأكله الفلاحون . ورفع أنطون عقيرته بالنداء ، وانتظر أن يسمع ردا ، ولكنه لم يسمع شيئا ، فهل رحل الخباز إلى غير رجعة أم أنه بارح مخبزه بصفة مؤقتة ؟

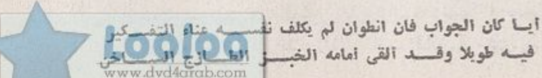
أيا كان الجواب فان أنطون لم يكلف نفسه عناء التفكير فيه طويلا وقد ألفى أمامه الخبز الطازج الساخن ، فتناول منه وأكل وأعطى صاحبه فأكل أيضا . وبعد أن شبعا غادرا المخبز ، وقال أنطون لصاحبه الأعمى وهما يخرجان إلى الزقاق الضيق :

ــ المهم الآن أن نعود ونعثر على الآخرين .

وفى طريق هبوطهما كانا يتحركان ببطء فوق الحصباء الخشنة ، رعاية لحالة أمين ، فالتقيا بجماعة صغيرة من الناس أقبلت نحوهما ثم تجاوزتهما ، وكان أفرادها يحملون حزما ولفائف مما ينم عن جلائهم عن القرية . وانتاب أنطون شعور أليم مفاجىء بالاثم إذ خطر له أن يكون صاحب المخبز أحد هؤلاء الرجال .. وأن يكون الخبز الذى التهم منه بضعة أرغفة كان معدا لزاد هؤلاء الناس فى سفرهم . وامتدت يده تتحسس الأرغفة القليلة التى دسها فى قميصه ليقدمها لأفراد أسرته . ومع اعتقاده بأن ظنه صحيح فى الغالب إلا ان ذلك لم يدفعه للتفكير فى رد الأرغفة . وكان أمين قد خبأ عددا آخر منها فى قميصه مع شىء من قرون الخروب . وفزع أنطون عندما رأى أحد هؤلاء الرجال يقف ويتحدث إليه ويسأله من أى البلاد هما . فقال له أنطون : « من (اللد) . لقد اتيت أنا وصاحبى إلى هنا لعلنا نجد أحدا يتعطف علينا فيعطينا شيئا من الماء نروى به ظمأنا . ولكننا لم نجد أحدا ! » .

فقال له الرجل : « معظم الأهالى رحلوا عن القرية هذا الصباح عندما وصلت إليهم الأنباء . ولكن أسرتى قررت





أيا كان الجواب فان انطوان لم يكلف نفسه عناء التفكير فيه طويلا وقد ألقى أمامه الخبز الطازج الساخن

المجازفة بالبقاء حتى المساء على أن نسير إلى « رام الله » فى الليل لأن الطرق كانت مزدحمة بالوف المهاجرين بالنهار » .

وغمغم أمين قائلا : « إن شاء الله » . واستطرد الرجل يقول بمرح : « سنعود جميعا بعد بضعة أيام ، عندما يتحرك الجيش العراقى لنجدتنا » .

ومرة أخرى قال الغلامان : « إن شاء الله » .

وأسرع الرجل بعد ذلك كى يلحق بمرافقيه الذين لم ينتظروه والتفت إلى الغلامين قائلا : « مع السلامة » .

فقال الغلامان : « مع السلامة » .
وشعرا بالارتياح لانصراف الرجل ، وقد زاد اعتقادهما بانه هو الشخص الذى سرقا ما كان قد أعده من الأرغفة لزاد اسرته ! .. وقال امين وهما يتعثران هابطين الأزقة المنحدرة : « حتى إن حرر الجيش العراقى فلسطين فلن نعود بعد بضعة أيام كما يقول هذا الرجل . بل سيستغرق الأمر وقتا أطول من ذلك . ثم لعلنا فى النهاية لا نعود إطلاقا ! » .

ولم يعلق انطون على كلام امين . فقد كان اليهود منظمين تنظيما فائقا على حد ما سمعه من حديث أبيه عنهم . أما العرب فلم يكونوا منظمين على الاطلاق .

إن كل ما يفكر فيه الآن — او بعبارة ادق كل ما يسعه الآن ان يفكر فيه — هو العثور على والديه ، ثم الوصول بعد ذلك إلى النبع . ثم إن يده التى كانت قابضة مدى ساعات

طويلة على يد أمين ، تؤلمه الآن ، وهو يشعر أنها لن تنبسط عن آخرها كما كانت من قبل .

وعندما عاد الغلامان إلى الشارع الكبير ، وجدا أن الجمع الحاشد لم يزل يشدد الضغط حول النبع ، ولكن مؤخرة ذلك الجمع كانت قد تخلخلت بعض الشىء لأن الكثيرين ادركوا عقم محاولة وصول الجميع فى وقت واحد إلى مصدر الماء ، فتفرقوا وجلسوا أو اضطجعوا تحت أشجار الزيتون أو على افاريز الشوارع مسندين ظهورهم إلى جدران البيوت على الجانبين ، قانعين بالانتظار ، شاكرين لله على الأقل انهم لم يعودوا مضطرين للضرب على غير هدى فى هجير البرية المستعر ، بأقدامهم المتورمة بين الحصى والشوك . فهم الآن فى الأردن . فى أرض عربية . فى ذلك الجزء من الأردن الذى كان يوما ما يسمى فلسطين ، شأنه فى ذلك تماما شأن الأرض التى إلى الغرب فيما بين ساحل البحر وصفوف التلال القاحلة .

جلس الناس يحملقون فى التلال . وكانت الشمس الغاربة قد صبغت صفحة الأفق من فوقهم باللون القرمزى . ومن وراء الأصيل راحوا يحملقون فى ظلام المستقبل الذى لم يتشكل بعد . وكان نفر منهم يبكون من الاعياء والقنوط . وفريق آخر كبير العدد جلس يحدق فى جمود ، هو بداية الجمود المعهود فى اللاجئين على نطاق واسع ، حيث لا يعرفون لانفسهم مصيرا !

وراح أنطون والغلام الأعمى يشقان طريقهما نحو المقدمة بوصة بوصة . وبعد جهد جهيد وصلا فى نهاية الأمر إلى الماء ، فراحا يغترفان منه فى راحتيهما ويضربان به وجهيهما ويمتصانه امتصاصا ليرطبا حلقيهما الجافين ، بأصوات عالية كأصوات البهائم عندما تشرب .. والناس من ورائهما ومن حولهما يدفعونهما طول الوقت ويجذبونهما إلى الوراء .

وكانت الظلمة قد بدأت تخيم عندما غادرا النبع . وشرع أنطون يشعر بالقلق على مصير والديه ، وعثر على مكان لأمين تحت أشجار الزيتون تركه فيه ثم انطلق يبحث متنقلا من شجرة إلى شجرة ، متعثرا بين الحين والحين بالأجساد المستلقية على الأرض ، متلقيا اللعنات من أصحابها . وأخذ يدقق النظر فى كل جماعة من الناس . ومنهم من كان يحسب « انطون » متسولا فينتهره كما لو كان كلبا ضالا !

وأستولى عليه فجأة فزع شديد من ان والديه ربما لم يصلا بعد إلى (نعلين) . ومن يدرى ؟ لعل أباه قد خارت قواه ، وامه الآن جالسة بجواره فى مكان ما من الوادى . أو لعل الأسرة كلها لم تزل متخبطة فى البرية . ما كان ينبغى له ان يجرى بهذا الطيش نحو أشجار الخروب . وإن شجرة الخروب لشجرة لعينة منذ القدم ، إذ يقال إن الأرواح النجسة تطوف حولها وتسكن قرونها . ولذعته فى جلد صدره الدافىء تلك القرون الصلبة الحادة وتلك الأرغفة المستديرة المسروقة.

وشرع الفتى المسكين ينتحب وقد نفدت حيلته ، وهو يتخبط على طول خمائل الزيتون ، شاقا طريقه فى العتمة بين

الأجساد المقعية والمستلقية ، متنقلا من جماعة إلى جماعة ، وقد بدأت شجاعته تتخلى عنه مع ازدياد شدة الاعياء وطوفان القلق والجزع .

وعندما قبضت على كتفه فجأة يد قوية ، صرخ فى ذعر وقد اعتقد أن شخصا شريرا سيلقى به على الأرض وهو يصب عليه اللعنة والسباب ! .. وإذا به يفاجأ على الأثر بصوت مألوف يصيح به :

ــ إلى أين تظن أنك ذاهب هكذا ؟ لقد لبثنا ساعات طويلة نبحث عنك فى كل مكان !

.. وفى خضم موجة طاغية من الارتياح والسرور رفع عينيه ليملأهما من وجه عمه فريد . ثم هتف وهو يلهث :

ــ أوه !

وتعلق بيد عمه، ولم يستطع أن يزيد على ذلك كلمة واحدة، لأن انفه بدأ ينزف دما مرة أخرى .

* * *

وكان الليل دافئا هادئا ساكن الريح ، لا تسمع فيه إلا أصوات الجنادب التى لا تنقطع . وأصوات ذلك العدد الكبير من الناس الذين يغطون فى نومهم الثقيل غطيطا مسموعا لأن الإعياء غلبهم على أمرهم . وبين كل مسافة وأخرى كنت تسمع نفرا قليلا من الساهرين يتحدثون بأصوات خفيضة . أما الأطفال فما أكثر ما ارتفع بكاؤهم فى جوف تلك الليلة

وفى بعض الأحيان كان يسمع من العراء فى خارج القرية ومن جوف البريه عواء فظيعا قصيرا يرسله ابن آوى . فتجيبه الكلاب من كل صوب بعواصف هادرة من النباح .

أما النائمون فكان منهم من استغرقوا فى الكرى وكأنهم لن يهبوا من سباتهم . ومنهم من راحوا يتقلبون كأنهم ينامـــون على جمر الغضى . ومن حول هؤلاء وهؤلاء أناس أسـلمهم الارهاق إلى الأرق ، لأن عبء الهم أثقل على نفوسهم من تعب السير الشاق ، فهم يحدقون فى أجساد النائمين عن كثب منهم فوق مدارج جانب التـل ، متطلعين فى صبر نافد إلى بزوغ الفجر من الأفق الشرقى .

ونامت « ماريان » . رقدت مستلقية على ظهرها فوق الأرض الصخرية وقـد أنهك التعب قواهــا تمام الانهاك . ونامت « ماجدة » فى استغراق إلى جوارها وقد تكور الطفلان إلى جانبيها ، أما نادية فرقدت ساهرة تبكى وتتوجع وتتوجس . واستراح بطرس مستندا بظهره إلى شجرة عتيقة عجراء وقد استولى عليه شعور بأنه لن يعرف للنوم مذاقا بعــد الآن . وجلس أنطون بجواره وهو يخشى أن يستلقى على الأرض حتى لا ينتابه النزيف الأنفى مرة أخرى . وكان فريد قد حاول أن يظل يقظا كى يؤنس وحشة أخيــه ، ولكن النوم غلبه فى النهاية على أمره فاستغرق فى النعاس وهو جالس .

وحملق بطرس فى الخطوط الخارجية القاتمة للتلال البعيدة . وقال بصوت مرتفع وإن لم يوجه حديثه إلى أحد على وجــه التخصيص :

— لم يستطيعوا ان يقتلونا . لم يقتلوا منا إلا الطاعنين فى السن فقط والصغار جدا . لقد اخرجونا إلى البرية لنموت كالكلاب ولكننا لم نمت . اننا لم نزل هنا . معظمنا على الأقل! ولكننا أصبحنا شعبا بلا وطن !

فقال أنطون : « لعل الجيش العراقى سيسارع إلى تحرير وطننا فيتسنى لنا عندئذ أن نعود إليه » .

ونظر بطرس إلى التألق الشاحب الذى بدا فى محيا ولده الجالس بجواره ، ثم قال برقة : « ربما . إن شاء الله » .. ثم استطرد بعد برهة : « استلق يا بنى وحاول أن تنــام . فان علينا أن نشرع فى السير مرة أخــرى » بمجــرد بزوغ النهار » .

فاستلقى أنطون بجوار أبيه ، فسحق جسده شيئا من نبات الزعتر البرى كان على الأرض التى يرقد فوقها ، ففاح منــه عطر . وأحس كأنه لم يزل قابضا بيده على يد أمين ، وكأنه يحس بضغط يدى أمين المتشابكين ، يكاد يحس به فــوق عظام كتفه !

وقال بالإنجليزية فى لهجة تفيض سعادة :

— انتصرنا !

.. وبعد أن أطلق زفرة استرخاء صغيرة ، استـغرق فى النوم .

❋ ❋ ❋

وكان اليوم التالى أقل فظاعة من اليوم الأول ، مع أن اليوم كان حارا .. ذلك أن اللاجئين لم يسيروا فى يومهم هــذا فى

السهل المنخفض ، ثم انهم يتقدمون فوق طريق ممهدة .. أجل انها طريق متربة كثيرة الريح ولا نهاية لها ، إلا انها طريق على كل حال . وقد جنبت الأقدام المتورمة المهراة عذاب شق طريق لها بين الأحجار والصخور . يضاف إلى هذا تخففهم الآن من الخوف وقد صاروا فى أرض يسيطر عليها العرب . أما كم من الوقت ستبقى هذه الأرض فى أيدى العرب فهى مسألة تخمين ، ولكن ليست فى الجو طائرات يهودية ولا على الأرض ما يدل على اقتراب كتائب يهودية . وكان مفهوما أن الفيلق العربى موجود فى (رام الله) .

وكان الناس قد بدأوا يتوجهون إلى النبع الصخرى قبل ان ينبلج النهار . وما أن اشرقت الشمس فوق الأفق حتى كان الزحام حول النبع كثيفا . وقرر الكثيرون ومنهم آل منصور أن من المستحسن عدم تضييع الوقت فى محاولة الوصول إلى الماء ، بل الأفضل ان يشرعوا فى قطع المسافة قبل أن تشتد حرارة النهار .

وسرعان ما تضخم الجمع الحاشد فوق الطريق حتى صار موكبا هائلا .. وبعد مسيرة نحو ساعة ونصف شوهدت سيارتان مقبلتين من جهة (رام الله) ، فتفرس بطرس بنظرة حادة وقد ضيق ما بين أجفانه ، ثم قال لزوجته ماريان التى تسير إلى جواره :

ــ قد تكون إحداهما لنا . فلا بد أن « خليل » بلغته انباء (اللد) فى الليلة الماضية .. فان كان البنزين متوفرا لديه فلا بد أن يكون قد أرسل سيارته لتأتى بنا .

وتراجع الناس على جانبى الطريق عندما اقتربت السيارتان ، وكانت احداهما « بويك » سوداء كبيرة والأخرى « شيفروليه » كستنائية اللون . وأخذت السيارتان تشقان طريقهما ببطء بين الجموع . ومضى بعض الوقت قبل أن تصلا إلى جماعة آل منصور . وعندئذ صاح بطرس :

ــ أحمد ! سائق خليل !

وكان فريد قد عرفه أيضا فى اللحظة نفسها فصاح مثل اخيه بسرور بالغ .. ووقف السائق ، وتكدست ماريان وماجدة ونادية فى المقعد الخلفى ، وجلس بطرس وفريد فى المقعد الأمامى بجوار السائق ، بينما تعلق انطون بالمؤخرة .. وصاحت ماريان تأمر السائق : « بسرعة ! وإلا فان الغوغاء سيحاولون الركوب معنا ! » .

وصاح انطون محتجا : « لا مكان لأمين ؟! » .

وكان لم يزل قابضا على يد الغلام الأعمى فوق كتفه . وقالت ماجدة بحزم : « أمين يجب أن ينضم إلى بقية الخدم فاننا إن أخذناه معنا فلا بد أن نأخذهم جميعا ! » .

فقال لها أنطون : « ولكننا لا نعرف أين الآخرون » .

وكانت ماجدة قد تكلمت بالعربية ، فقال أمين بسرعة : « لا بأس . إن كل إنسان هنا وجهته (رام الله) . وسيقبل أى واحد منهم أن يمشى معى » .

وحاول أن يخلص يده من يد أنطون .. غير أن أنطون زاد بها تشبثا وصاح فى إصرار :« ان أنت مشيت فكذلك سأمشى أنا ! » .

وصاحت به ماريان فى ضراوة وقد فطنت إلى الوجوه التى أخذت بالفعل تتجمع عند نوافذ السيارة : « اركب ! تستطيع ان تحشر نفسك بيننا . ويستطيع أمين أن يجلس على أرض السيارة تحت أقدامنا » .

وركب الغلامان ، وصفق الباب ، واستأنف السائق السير إلى الأمام باحثا عن مكان يسمح بالدوران . وكان عدد من الناس قد أخذوا يلوحون بقبضات أيديهم فى أثر السيارة « البويك » . أما السيارة « الشيفروليه » فمشت خلفها وهى فارغة لأن الذين أرسلت لتأتى بهم كانوا فيما يبدو على مسافة ميل أو أكثر فى مؤخرة الموكب الذى لا ينتهى .

ووجه بطرس إلى السائق هذا السؤال :

ــ كيف الحال فى (رام الله) ؟

فأجابه السائق قائلا :

ــ حال فظيع ! فقد وصل إليها ألوف من اللاجئين فى الليلة الماضية ولم يكن فى المدينة ما يكفى لاطعامهم . وقد وزع عليهم الخبز من مخازن الفيلق العربى هذا الصباح . جلوب باشا هو الذى أمر بذلك فيما يقولون .

فسأله بطرس : « أهو موجود هناك ؟ »

فأجاب السائق : « لا ، إنه فى القدس . ولكنهم اتصلوا به تليفونيا هناك . وكان الناس يرجمون العساكر بالحجارة بالأمس عندما جاءتنا أنباء استيلاء اليهود على (اللد) و (الرملة) » .

وكانت نبرة صوت السائق تدل على الرضى بما فعله الناس بالعساكر . ولكن بطرس لم يعلق . فالمرارة كانت شديدة إلى درجة لا يتصورها العقل . لأن كل إنسان كان يعتقد أن السيارات المسلحة الثلاث التى ناوشت طليعة الكتائب الإسرائيلية على مشارف مدينة (اللد) كانت طلائع القوة الزاحفة لتخليص المدينة من اليهود . ولكن هذه الآمال لم تتمخض عن شىء ، ولم يظهر من كتائب الفيلق العربى طابور واحد ، فاقتصرت المناوشات على مشارف المدينة . أما قوات اليهود فكانت متفوقة فى العدة والعدد . فماذا تجدى ثلاث سيارات مسلحة فى دفع غائلتهم ؟

كان بطرس يعتقد أنه عندما يكتب تاريخ الحرب العربية الإسرائيلية سيذكر فيها أن جنود الفيلق العربى كان من الممكن ان يقاتلوا ببسالة ضد قوات معادية تفوقهم عددا وعدة . ولذا رجم الأهالى المدنيون المستنكرون العساكر العرب بالحجارة وحصبوهم بالحصى . لقد فعل المدنيون هذا وهم لا يعرفون شيئا بالبداهة عن المشكلات الحربية . وأحس بطرس غصه شديدة لأن جرحا جديدا قاسيا قد أصاب الروح الفلسطينية التى اثخنتها الجراح من قبل .

ولما تسنى للسيارتين أن تدورا لتعودا صوب (رام الله) أفسحت الحشود الطريق لهما على مضض واستياء .

وقالت ماريان لنفسها فى أسى يائس :

ــ إنهم يشعروننا بالاثم لتمتعنا بهذا الامتياز عليهم . ولكن



هكذا كانت حالنا دائما ، وقد قضت أسرتنا عمرها كله محظوظة منعمة .

وشعرت بارتياح شديد عندما التقوا فى الطريق ببضع سيارات أخرى قادمة من (رام الله) . وإن كان اسطول كامل من السيارات لا يمكن أن يغنى إلا بنقل حفنة من عشرات الألوف من أولئك المنهكين المتورمى الأقدام ، الجائعين العطاش ، المتصببين عرقا والمنزوفين جهدا ودموعا ، ممن كان عليهم أن يواصلوا السير بمشقة وبطء فوق طريق تسفيها الرياح بعاصفة من الغبار الكثيف ، وهم يقتربون من نهاية سيرهم المنكود إلى (رام الله) .

— ٥ —

ومن قبل وصول كتلة المهاجرين الرئيسية من (اللد) و (الرملة) كانت مدينة (رام الله) الجبلية الصغيرة مسرحا لمنظر عجيب ، لألوف المشردين الذين لا ديار لهم وهم يتدفقون فى شارعها الرئيسى الضيق باحثين عن الطعام والمأوى .

وتحت كل شجرة زيتون فوق مدارج التل كنت ترى أسرة قد عسكرت هناك . وفى كل حديقة وعلى طول كل جدار أو سياج فى شوارع الحى السكنى التى تظللها أشجار الصنوبر كنت ترى خياما بدائية مصنوعة من الخيش القديم وخرق الثياب المهلهلة لتأوى تحتها رجالا ونساء وأطفالا فتمنحهم إحساسا وهميا بالملاذ .

وكان الهلال الأحمر المصرى قد نظم بالتعاون مع الشرطة والجيش توزيع الطعام والبطاطين والخيام . بيد أن ذلك « الخروج » الكثيف الواسع النطاق لم يكن متوقعا من قبل وبهذه السرعة ، ولذا لم تكن الاستعدادات قد اتخذت لمواجهة مثل ذلك الطوفان . إذ كان الاعتقاد السائد على نحو ما أن (اللد) ليس من المعقول أن تسقط فى أيدى اليهود . ولذا كانت الموئل الذى لجأ إليه الناس من المناطق المحيطة بها يلتمسون الأمان من عدوان اليهود وبطشهم . وكان بها حرس قومى قوى . وكل رجل من سكانها قادر على حمل السلاح كانت لديه بندقية . وفى الوقت الذى كانت فيه ضجة المعارك تتصاعد قعقعتها من كل مكان حولها كانت (اللد) نفسها

آمنة وادعة ، والناس فيهـا يؤمنون بأن النجدات العربية سوف تصل عما قريب فترد الإسرائيليين على أعقابهم إلى البحر . بل وتلقى بهم فى لجته فينتهى أمرهم إلى غير رجعة .

ولكن وا أسفاه . بدلا من الالقاء بالإسرائيليين الدخلاء إلى قاع اليم كان الفلسطينيون هم الذين سيقوا سوق الأنعام صوب الشرق والقى بعشرات الألوف منهم فى لجة البرية الرملية الصخرية ، لجة العطش الذى لا ترويه قطرة ماء واحدة !

وكانت « رام الله » هى التى تلقت الصدمة الأولى لهذه الكارثة الإنسانية الكبرى ، فترنحت تحت وقع تلك الصدمة ، بيد أنها ثابت إلى رشدها سريعا وشرعت فى تنظيم جهودها لملاقاة هذا الرزء الداهم . وأقبلت سيارات النقل التابعة للجيش من عمان التى تقع على مسافة بعيدة فوق التلال القاحلة فى الضفة الأخرى من وادى الأردن الكبير ، أقبلت، محملة بأكياس الدقيق . وكانت مكبرات الصوت فى الشوارع تقوم بتوجيه الناس إلى مراكز التوزيع . وسرعان ما تحولت مدرسة الأصدقاء الأمريكيين للبنين ببنيانها الكبير إلى مستشفى مؤقت وعيادة لعلاج المرضى والجرحى الذين تمخض عنهم هذا « الخروج » الفظيع ، ولرعاية الأطفال الكثيرين الذين جاء أمهاتهم المخاض قبل الأوان فى تلك المسيرة الرهيبة ، فتعرضت حياة أولئك الأمهات المنهكات لحمى النفاس بمضاعفاتها الوبيلة جميعا !

وهاجم الناس خمائل الزيتون والبساتين والكروم للحصول على أخشاب يشعلون بها نيرانهم . ومن الطبيعى أن أصحابها تأذوا إلا أنهم استنجدوا بكرم الضيافة العربى المأثور ليتجلدوا ويقولوا للناس باسمين :

ــ تفضلوا ، الدار داركم !

إذ كيف يمكن لأحد أن يرد هؤلاء الجياع المحرومين المشردين خائبين ؟ إن أمم العالم قد أصدرت قرارا جائرا باعطاء وطنهم لليهود ، وها هم اليهود قد وضعوا أياديهم عنوة على ديارهم وأراضيهم . فليكن الله فى عون تشردهم وجوعهم . وكل من بيده شىء فى (رام الله) كان يبيحه أياهم قائلا :

ــ تفضلوا !

* * *

وأخذت السيارة الكبيرة البويك السوداء تشق طريقها فى الشارع الرئيسى المكتظ بالناس فى المنطقة السكنية الراقية حيث تلقى أشجار الصنوبر ظلالها . وتحت كل شجرة منها معسكر مرتجل لايواء حفنة من اللاجئين بصورة أو بأخرى . وكان « خليل داود » قد بعث بهذه السيارة يقودها سائقه الخاص فى ساعة مبكرة من هذا الصباح على أمل ان يعثر السائق على أصهاره وهم شقيقا زوجته بطرس وفريد منصور وزوجتيهما وسائر أفراد أسرتيهما فى المرحلة الأخيرة من تلك المسيرة الطامية .

وعندما وقفت السيارة أمام بوابات فيلا داود القائمة بمنحاة من الطريق العامة فى نهاية حديقة مترامية حافلة بالأشجار المزهرة وبساتين الفاكهة ، أخذ الناس المتناثرون تحت مظلات من الخيش القديم مثبتة فى قضبان سياج الحديقة ينظرون اليهم بغيظ وحرد . كانت نظراتهم تقول بأجلى بيان :

— هؤلاء حقا هم المحظوظون ، لأنهم قطعوا جزءا على الأقل من مسيرة الخروج بالسيارة ، ولهم هاهنا بيت وأسرة يلجأون اليهما ...

وخليل داود رجل وسيم طويل ذو بشرة شقراء ، ارستقراطى المظهر ، يتحرى الرسميات فى سلوكه حتى أن من لا يعرفونه عن كثب كانوا يعتقدون أنه فاتر بارد الطبع ، فى حين أنه كان فى الواقع رجلا على جانب كبير من كرم الخلق والسخاء والرقة الفطرية .

وهو من كبار ملاك الأراضى وذو ثروة طائلة . وزوجته « منى » لها محاسن آل منصور وسحرهم . وفيها شىء من سرعة الغضب التى يتصف بها شقيقها الأكبر بطرس . ولما كان خليل مسلما فقد استاء رؤساء الأسرتين فى البداية أعمق الاستياء لعقد ذلك الزواج ، فيما عدا بطرس الذى كان فى تلك الفترة زوجا مهجورا ، لأن زوجته الأولى التى كان متزوجا منها فى ذلك الوقت كانت قد فرت مع رجل أصغر منه سنا ..

وفيما عدا فريد الذى كان ملحدا متمردا مع أنه متزوج من امرأة متدينة يصل تدينها إلى درجة الإيمان بالخرافات والخزعبلات ، على طريقة ايمان العجائز .. وقد طرب خليل

داود عندما رأى بطرس وقد قارب الخمسين من عمره يصيب شيوخ الأسرة بصدمة عنيفة أخرى عندما تزوج من امرأة إنجليزية أصغر منه بعشرين سنة إلا أنها تعتبر من وجهة نظر أولئك الشيوخ المتزمتين عجوزا ، ثم هى فوق هذا وذاك أجنبية .

وكان انطون يشعر بشىء من الخوف من آل داود ، أى من زوج عمته خليل ذى المظهر المتعالى ، ومن عمته « منى » بابتسامتها ودماثتها التى تشوبها فجاة ثورات غضب ، ومن البنات الأربع بنات عمته ، وكانت صغراهن تقاربه فى السن ، أما كبراهن ففتاة كبيرة فى السادسة عشرة من عمرها ، لها نظارة ذات إطار ، ويوحى مظهرها ولهجتها بأنها تعرف كل شىء فى الدنيا ولا تطيق أن تشغل نفسها بأى إنسان ليس فى مستواها العلمى !

وكانت زوجة بطرس الانجليزية ماريان تميل إلى زوج أخت زوجها — خليل — ولكنها ترى « منى » متعبة ، وترى بناتها غير جذابات بصورة واضحة ، برغم ما يتمتع به والدهن من جمال الشكل الملحوظ . ومن الممكن أن يظنهن الناس إنجليزيات — فيما تعتقد — بسبب لون بشرتهن الأشقر ، وأسلوبهن غير المبالى ، وعدم لباقتهن فى التصرف أمام الناس !

أما بطرس فكان يحب أخته « منى » ويغفر لها ما ينتابها من هياج وغضب ، لأنه يعرف فيها النسخة الأنثوية من ذاته ، ولم يكلف نفسه عناء محاولة فهم خليل ، إلا أنه كان يتحرى احترامه ، لثرائه الطائل وارستقراطيته ، فهو من المؤمنين بما

للعائلات العريقة من مكانة مرعية . ولا سيما ان هذا الثرى الأستقراطى زوج أخته .

واقبلت « منى » تجرى بأسلوبها المندفع لترحب بهم ، ومن ورائها أقبل خليل فى أناته وتصلب قامته وهيبته وجــلاله ، إلا أن ذلك لم يمنعه من تقبيل صهريه فوق الخــدين ، ومن تقبيل يدى المرأتين ، ومن تربيت خدى أنطون باعزاز تربيتــا هينا . وتعــالت من الجانبين صيحات الترحيب والتأهيــل والتأسى والاستفسارات ، ثم سار الجميع فى موكب صغير تحت « برجولا » تعرش فوقها أعواد نبات « الجهنمية » صــوب الفيلا البيضاء المكللة بالنباتات المتسلقة الخضراء ذات الأوراق التى تشبه أوراق الكرم .

وارتقوا جميعا الدرجات الرخامية البيضاء إلى شرفة واسعة تناثرت فوقها المناضد والمقاعد فى تنســيق بديع ، والقى آل منصور بأجسادهم على تلك المقاعد ، وجىء إليهم بالمشروبات المثلجة . وأخذت إحدى الخادمات طفلى نادية لتمضى بهمــا إلى مكان آخر ، وأرادت أن تأخذ معها أمين أيضا ، ولــكن أنطون اصر على بقائه معهم ، وقال فى تبرير ذلك الاصرار :

ـ إنه صديقى .

فسألته عمته منى : « وأين أسرته ؟ » .

فبادرت ماريان قائلة بسرعة :

ـ سيصلون فيما بعــد . وهم يعلمون أين نحن . فهم فى خدمتنا . دعيه مع أنطون الآن ، فقد سارا معا متلازمين طول الطريق .

وعندئذ وضع خليل داود يده على ذراع الغلام الأعمى وقال له بحنان واضح :

ــ مرحبا بك . أنت هنا فى دارك .

فقالت ماريان :

ــ نحن جميعا فى حاجة إلى الاستجمام .

ثم انفجرت تبكى بدموع غزيرة فجأة وبلا سبب .

* * *

ولم ينم نوما عميقــا من بين جميع نزلاء بيت داود فى تلك الليلة ســوى بطرس وحــده الذى انهكت قواه تلك المسيرة الشاقة وسهره طول الليل فى العراء فى الليلة الماضــية على مدارج التل فى مشارف قرية (نعلين) . وبلغ من عمق نومه ان غطيطه العميق الرنان نفذ إلى سمع ماريان التى رقــدت مؤرقة العينين فى الحجرة المتصــلة بحجرته ، فزاد ذلك من توتر أعصابها .

اما نادية فرقدت مع طفليهــا فى حجرة أخرى ، وراحت تتساءل طول الليل متى عساهم يفرجون عن « نصرى » الذى احتجزه الإسرائيليون ، ومتى عساه يصل إلى (رام الله) وهل تراه فى ثورة العار والغضب حريا ان يقتلها عندما يعلم

ما وقع لها ، أم أن الأحرى بها أن تقتل نفسهـا قبل عودته حتى لا تواجهه بمذلتهـا ؟!

وكانت هذه الأفكار تنتابها طول الليل وتتخللها ومضات من الرجاء تتخيل فيها أن عودة نصرى قد تأخرت إلى أن يقدم لها مرور الزمن الدليل الحاسم على أنها لا تحمل فى أحشائها ثمرة ذلك الفعـل الفظيع الذى وقعت جريرته عليها ، وأن نصرى لا حاجة به إلى أن يعلم شيئا عن تلك المصيبة برمتها .

بيد أن الخوف كان يلقى ظلاله القـاتمة دائما على تلك الومضات من الرجاء . وقد حاولت أمها وحاولت ماريان أن ترفها عنها قائلتين إنه إذا تبين أنها حامل فان نصرى دأباها حريان أن يذهبا معا إلى طبيب فلسطينى فيخبراه بما حـدث ويطلبان إليه أن يجهضها ، وما من طبيب فلسطينى يسعه فى هذه الحالة أن يرفض هذا الطلب الإنسانى والوطنى فى هذه الظروف .

ولما اغلقت عينيها تراءت لها مرة أخرى صورة وجه ذلك اللبنانى الأمريكى اليهـودى الشاب وهـو يضحك مزهوا بانتصاره الوضيع عليها ، فجعلت تقلب رأسها فوق الوسادة من هذا الجانب إلى ذاك الجانب وهى تئن من عذاب نفسى مستعر .

وفى الحجرة الملاصقة لحجرتها رقد والداها . وهما أيضا لم يغمض لهما جفن طـول الليل . لأن ماجدة أفضت بالنبـأ الفاجع إلى فريد بعد أن أويا إلى حجرتهما .

وقالت ماجدة تستحث زوجها على السكوت عما أصـاب ابنتها :

ــ إن لم يصل نصرى إلى هنـا فى وقت قريب جـدا فقد يتضح لنادية أن كل شىء على ما يرام . وفى هـذه الحـالة لا حاجة بنصرى إلى أن يعرف شيئا عن هذا الموضوع اطلاقا . فلماذا نسبب له عذابا لا ضرورة له ولا مبرر فى هذه الحالة ؟ وبعد عشرة أيام تقريبا ستكون نادية قد عرفت كل شىء .

فقال فريد بوجوم :

ــ يحسن إذن أن تصلى لله بحرارة كى لا يعـود نصرى قبل أن تكون نادية متأهبـة لاستقباله وقد ثبت أن كل شىء على ما يرام . ولـكن إذا عاد قبل أن نعرف على وجه اليقين أهى حامل أم لا فمن الخير فى هذه الحـالة أن يقوم خليـل بابلاغ الأمر إليه !

فقالت له ماجدة بشىء من الدهشـة : « ولمـاذا خليـل بالذات ؟ لماذا لا يقـوم باخبـاره بطرس باعتبـاره رأس الأسرة ؟ » .

فأجابها قائلا : « إن بطرس سيجد هذا الموقف مزعجـا له إزعاجا يتجـاوز طاقة احتماله . أما خليـل فهـادىء بارد الأعصاب ، على الصورة التى تنبغى لمحام أو طبيب يعـالج الأمور معالجة موضوعية . فمن الخير أن يتلقى نصرى الخبر منه .. » .

ورقدا على ظهريهما فى الفراش الواسع ، وقد مد كل منهما ذراعيه بمحاذاة جنبيه مسترخيين ، لاراحة أقدامهما المتورمة وقد وجدا فراشا يرقدان عليه بدلا من جانب التل الصخرى الذى ارقهما فى الليلة السابقة ، فالاستلقاء على الظهر صار فى حد ذاته نعمة . وكانت النعمة حرية أن تكتمل لولا ذلك القلق الموجع الذى تثيره نادية . نعم لولا هذا القلق لاستطاعا ان يستغرقا فى النوم بكل سهولة بعد طول العناء . ولكن التفكير القاتم أبقى عيونهما مفتوحة تحملق فى الظلام . وكان فريد يغفو بين حين وآخر ، بصورة متقطعة ، أما ماجدة فكانت كلما هومت للنوم انتبهت مذعورة وهى تخال أنها سمعت نادية تنتحب فى الحجرة المجاورة .

وفى مؤخرة البيت ، فى حجرة تطل من الطابق الأول على حديقة بها نافورة وأشجار برتقال صغيرة ، استلقى خليل فى الفراش وقد عقد يديه تحت رأسه ووجهه صوب ضياء القمر فى الخارج . وكانت أشجار الياسمين تحدق بفروعها اللدنة بالنافذة وتفعم هواء الليل الدافىء الساكن بعبيرها الفواح ، وأصوات زيزان الحصاد ــ تلك الحشرات الصغيرة الشفافة ــ تنساب فى الظلام آتية من بعيد .

وكانت منى جالسة بجواره متكئة على عدد من الوسائد وهى تدخن سيجارة ، ووجهها أيضا صوب النافذة وضياء القمر . وكانا قد تناقشا بالفعل فى كارثة نادية مع بقية الأسرة ثم فيما بينهما ، فلم يبق مجال لمزيد من الكلام فى هذا



وكانت منى جالسة بجواره متكئة على عدد من الوسائد وهى تدخن سيجارة

الخصوص . لأنه إذا تمخض الموضوع عن أسوأ احتمـــالاته فلدى خليل صديق حميم من الأطباء الفلسطينيين ، وهو واثق أنه سيضع حدا لذلك الحمل السفاح . وخليل أيضا سيتحدث إلى نصرى عندما يصل بعد إطلاق سراحه ، ومن المؤكد أنه لن يشعر إلا بالرثاء لحال زوجته المسكينة .

لقد زلزل كيانهما وانزعجا غاية الانزعاج لذلك الحـادث الوخيم ، ولكن ثمة مسألة أولى بالنظر والبحث عن حل لها . فالسؤال الآن هو : هل من المنتظـر أن يهجم اليهـود على (لطرون) بعد أن احتلوا اللد والرملة ؟

ولطرون تقع عند تقاطـع طريقين أحـدهما يفضى إلى رام الله ، والآخر يفضى إلى القدس . ويقال إن قــوات من الفيلق العربى لم تزل فى لطرون . ولكن بدأ يتضـح للناس أن قوات العرب تواجه فى كل مكان قوات من العدو تفوقها عددا بكثير .

وسقوط لطرون معنـاه أن الطـريق صـارت مفتوحة إلى رام الله ، ورام الله قد صـارت الآن مكتظة إلى أقصى حـد باللاجئين . فهل سيقع خروج آخر ، وجهته فى هـذه المرة مدينة (أريحا) التى تقع على انخفاض ١٢٠٠ قـدما تحت مستوى البحر ، والحر فيها لا يتصوره العقل فى شهر يوليه ؟

هل سيكتب عليهم جميعا — آل داود وآل منصور — أن يبادروا بالخروج من البلد الآن ، منتهزين فرصة خلو الطريق فى الوقت الحاضر ؟

إن (بطرس) يمتلك بيتا هناك يتسع لهم جميعا . وكانت(منى) فى حالة عصبية سيئة بعد الحكايات المؤلمة التى سمعتها عن الهجرة من (اللد) ، ثم ان القلق ساورها بخصوص بناتهـا الأربع . وكان من رأى (بُطرس) أنهم ينبغى أن يبـادروا الآن بالمسير إلى (أريحا) . ففى عزمه أن يتوجه إلى هنــاك مع (ماريان) و (أنطون) فى الغد إذا وجد أن الجميع قد ظفروا بكفايتهم من الراحة .

وأشار (خليل) إشارة تدل على نفاد الصبر وقال :

— (بطرس) متقدم فى السن . وقد نالت من أعصـابه تلك التجارب التى مر بها . إن (اللد والرملة) سقطتا فى يد اليهود لأن أحدا لم يحاول الدفاع عنهما . أما منطقة لطرون ففيهـا قوة كبيرة من الفيلق العربى . وسيكون أمامنا متسـع من الوقت للنزول إلى (أريحا) فى حالة سقوط (لطرون) . وإن كنت لا أعتقد أنها ستسقط .

وأشاح برأسه . وكان ضـوء القمـر يسقط مباشرة على وسائدهما ، فاستطاعت « منى » أن تراه يبتسم ابتسـامته اليسيرة المستهينة ، ثم قال لها :

— لمـاذا كل هذا القلق ؟ إنك تؤكدين أنك تؤمنين بالله ، فلماذا لا تثقين به وتكلين الأمر إليـه ؟ إن الله رحيم بالعبـاد لطيف بهم ، أليس كذلك ؟

ومـد اليها يده واردف قائلا :

— لماذا لا ننام قليـلا ؟

فاطفأت سيجارتها ورقدت بجواره ، ثم عانقته بخشوع كلمات



ووضعت رأسها على كتفــه وأحاطت جســده بذراعها ، فلم يتكلم ولم يتحرك .. وسرعان ما استغرقه النعاس .

وكانت (منى) تحسد زوجها (خليل) على ما يتمتع به من هدوء فى عقله وجسده . وقالت لنفسها :

ــ نحن (آل منصور) عصبيون لا يقر لنا قرار . ونعتز باننا مسيحيون كأنما ذلك حجة ناهضة على مزية خاصة فينا ، مع أن المسألة كلهـا لا تعدو أن تكون صــدفة ناتجة عن الولادة لأبوين مسيحيين . فالأمران فى النهاية سيان . وكلنا عرب ، والدين للديان .

ولكن (خليل) ليس شديد الإيمان بالدين . ويؤثر أن يكون ضميره الشخصى هو مرشده والرقيب عليه . ولكنه بحكم تربيته وعاداته عربى مسلم .

وأخذ الكرى يداعب أجفان « منى » بعد التفكير قليلا فى تلك الخواطر ، وفى العداوة التى ينقم بهــا اليهود على المسلمين والنصارى على السواء ما داموا عربا .. ولمــا استيقظت فى الصباح وجدت (خليل) قد نهض منذ بزوغ النهار كالعادة وغادر الحجرة ، فضغطت على الجرس فأتتها الخادم بالقهوة التركية وقبل أن تفرغ من تناولها الفت (ماريان) واقفة بجوار فراشها يبدو عليها الانتعاش وهدوء الأعصاب بصورة مذهلة . وكان ثوبها قد غسل أثناء الليل . وقالت لها (ماريان) إن (بطرس) مصر على الهبوط إلى (أريحا) . وأنه قد اتصل بالفعل تليفونيا ببيته هناك . وأن (خليل) قد أمر السائق أحمد أن يقوم بتوصيلهم .

ـ ٦ ـ

كان الذهاب من بلد يرتفع فوق مستوى سطح البحر بمقدار الفين من الأقدام إلى (أريحا) التى تنخفض عن مستوى سطح البحر بمقدار ١٢٠٠ قدما ، فى حرارة أواسط شهر يوليو ، عملا اعترض عليه الجميع ــ فيما عدا (ماريان) ــ ووصفوه بالجنون ، إذ لماذا يهبط اناس مالكون لقواهم العقلية السليمة من جــو التلال العالية المنعش إلى جوف ذلك الجحيم الصحراوى ؟

وراحت (ماريان) ترد على هذه الحجة بإصرار قائلة إن نشدان راحة البال ليس عملا جنونيا ، ولا سبيل إلى راحة بال (بطرس) فى (رام الله) التى تقع على الطريق الرئيسية المبــاشرة من (لطرون) المهددة باحتلال اليهود لها ، هذا فضلا عن اكتظاظ شوارعها باللاجئين . وزادت (ماريان) على ذلك أن (بطرس) قد عانى من العذاب ما فيه الكفاية . وأيدت قولها هذا بالدموع التى حالت فى عينيها من فرط ما منيت به شخصيا من الإعيــاء العصبى والجسدى . فلئن كانت (أريحا) بجوها القائظ هى ما يصبو إليه كى تطمئن نفسه ، فمن الواجب أن يذهب إلى هناك ، ومن الواجب أيضــا أن تذهب إلى هناك معه زوجته وابنه .

بيد أنها كانت تعلم أن ذلك ليس كل ما فى الأمر . أجل إن حالة الإنهاك التى يعانيها حقيقة واقعــة . وحقيقة واقعــة أيضا أنه لا يشعر بالأمان فى (رام الله) ، وأنه يحفل أشد الإحفال من مجرد احتمال تعرضه لمحنة أخرى على يد الإسرائيليين ..

وحقيقة واقعـــة ثالثة أن جو (رام الله) بكل من تغص بهم من خليط اللاجئين ، بتعاستهم وضياعهم ، كل ذلك ثقيل الوطأة على أعصابه .. ولكن ما هو أهم من تلك الدوافع كلها رغبته بل حاجته الماسة إلى الهرب من لقاء الناس .

لقد أمضوا الأسابيع الأخيرة فى بيتهم باللد وهم يعيشون ليل نهار محوطين بأناس مروعين جزعين قلقين ، ما بين أقارب وأصدقاء وغرباء عنهم تماما جاءوا كلهم يلتمسون المأوى فى البيت الكبير ، فعاشوا جميعا فى جو الخوف ، ملتصقين بعضهم ببعض ، يسيطر عليهم توتر مستمر .

وكان الإسرائيليون يطبقون على المدينةفى فترة الأيام الأخيرة، ولا يفارق أذهان (آل منصور) الفزع الرهيب مما حدث فى (دير ياسين) منذ بضعة أشهر فقط ، حينما أعد اليهود مذبحة شائنة شملت القرية كلها على أبشع صورة ممكنة . وظلت هذهالصورة تلح على مخيلة الناس ، فما حدث على بعد بضعة أميال من القدس ، من الممكن أن يحدث فى مدينة (اللد) العزلاء !.. ولقد أوشك العبء العصبى لتلك الأيام الأخيرة فى (اللد) أن يتجاوز طاقة الاحتمال البشرى ، والناس موزعون بين الخوف من المذابح وبين القصف المستمر بالقنابل وبين أصوات الطلقات النارية ..

حدث كل هذا والناس فى بيتهم متلاصقون ، فلا مجال لاختلاء المرء بنفسه كى يبكى أو يصلى أو ينفس عن عواطفه ببثهـا لمن يحب . وهذا الحرمان من الخلوة أشد وطأة على بعض

الناس مما هو على بعضهم الآخر . و (بطرس) ممن كانت هذه الحالة بالنسبة لهم عذابا لا يحتمل .

ومع أن مجموع الناس فى دار (خليل) اقل من اثنى عشر شخصا، وكلهم من خاصة أهلالأسرة الأقربين، إلا أن (بطرس) كان يحس مع ذلك أن عددهم أكثر مما ينبغى . وأن التـــوتر اشد مما يطيقه . فلم يسبق قط أن كان الاتصال بينـــه وبين زوج اخته حميما أو مستمرا على هذا النحو . والفتيات الأربع ــ بنات أخته ــ كن يزعجن أعصابه بكثرة ضحكهن المجلجل .

اجل . كل إنسان وكل شىء كان يزعج أعصاب (بطرس) ، فيما عدا زوجته وابنه . وكان يريد ــ بل انه بعبارة أدق كان بحاجة إلى ــ أن ينفرد بهما . وكل ما تسببه حرارة (اريحا) من التنغيص لن يكون شيئا مذكورا فى نظرة : ف (أريحا) بلد يأمن فيه على نفسه وذويه . وهى ليست غاصة بضحايا الإرهاب اليهودى الغاصب من اللاجئين المشردين . وفى (أريحا) سوف يكون فى مقدوره أن ينعم بالهدوء والوحـــدة مع الشخصين الأوحدين اللذين يشعر حقا أنهما يعنيانه من كل قلبـــه .

كانت (ماريان) مدركة لهذا كله ، لأن هذا الحل كان يوافق حالتها العصبية المرهقة . وإنها لتعلم أن الحر فى أريحا لا بد أن يكون قاسيا جدا ، ولكنهم فى الوقت نفسه سيشـــعرون بالأمن والطمأنينة ، وستسترخى أعصاب (بطرس) ،وسينعمون ببركة العزلة .

أما (أنطون) فانه شعر بارتياح عندما علم أنهم سوف لا يبقون فى (رام الله) . فهو أيضا لم يشعر بالأمان هناك . فهـــو لم

يكن على سجيته قط مع أقاربه من (آل داود) . ثم إن بيتهم فى (أريحا) يعتبر بمثابة دار ثانية لهم ، وفى وسع (أمين) ووالديه أن يهبطوا معهم إلى (أريحا) ليكونوا بمثابة خدم لهم ، وبذلك يظل هو و (أمين) متلازمين . وسوف لا تبدأ الدراسة بالنسبة لكليهما قبل أواخر سبتمبر . وحتى ذلك الحين من يدرى ماذا سيحدث؟ ربما يكونون قد عادوا إلى موطنهم فى (اللد) ، هم وبقية هؤلاء الناس جميعا . .

واستقر رأى (بطرس) على سلوك طريق الوادى إلى (أريحا) وهى طريق من الدرجة الثانية ، وعرة ، ضيقة ، صخرية فى بعض مواضعها . يضاف إلى هذا انها كثيرة المنعطفات ، ولذا تستغرق مدة أطول . إلا أن الطريق الرئيسية الجيدة تخترق قلب مدينة (القدس) ، وثمة معارك ناشبة فى المدينة القديمة . واليهود يستخدمون فى تلك المعارك قذائف المورتار الثقيلة . ومن ثم لم يكن من الممكن لأى شىء فى الدنيا أن يغرى (بطرس) باختراق (القدس) ، وإن كان (فريد) ــ الذى قرر البقاء فى رام الله ــ يجادله فى ذلك قائلا إن وجود الفيلق العربى هناك سيكفل لهم حماية أعظم مما يمكن أن توفره لهم تلك الرحلة فى صميم الريف . وكان الطريق إلى (أريحا) لم يزل مفتوحا ، أما هناك فى الوادى فمن الجائز أن يحدث لهم اى شىء !

ورد عليه (بطرس) قائلا إن أى شىء يمكن أن يحدث فى اى مكان . هذا صحيح ، ولكن الأخبار تتواتر بأن القنابل تصب على مدينة (القدس) بلا انقطاع ، وأن اليهود متربصون فى كنيسة « نوتردام » ومعهم المدافع الرشاشة يطلقونها على

الناس من نوافذ الكنيسة . وأنها لمصيبة أن يفلتوا من الخروج الكبير المهلك فى (اللد) كى تصرعهم المدافع الرشاشة أو شظايا القنابل فى (القدس) . أما فى الوادى فليس من المنتظر أن يلتقوا بأى إنسان سوى اللاجئين من البدو .

وتنبأ لهم (خليل) بأنهم سيعودون بعد أسبوعين أو ثلاثة إلى (رام الله) فى طريقهم آيبين إلى بيتهم فى(اللد) ، وقال بلا مبالاة :

ــ لأننا سنكون قد ألقينا باليهود إلى البحر .

فافتر فم (بطرس) عن ابتسامته الهينة التى يمتزج فيها الأسى بالحزن ، وأجابه قائلا :

ــ أراك تتحدث كما لو كانت لدينا جيوش قوية تحت تصرفنا مع أنه لم يكن لدينا من القوات مانبعث به لحماية (اللد والرملة) .

فقال له (خليل) : « لم يكن لدى الفيلق العربى عدد كاف من القوات ، ولكن العراقيين لم يدخلوا هذه المنطقة بعد » .

فأجابه (بطرس) : « اتمنى على الله أن يصلوا فى الوقت المناسب » .

وغضبت (منى) ، لأن (بطرس) كان فيما يبدو حريصا على مخالفة (خليل) فى الرأى على الدوام ، وقالت بحدة :

ــ إن هذه الروح الانهزامية لن تساعد على حل الأمور !

فأجابها أخوها باسما :

ــ من الخير دائما أن يكون المرء واقعيا فى نظره إلى الأمور . .

وصاحت (ماريان) وهى تحاول يائسة أن تكون على الحياد، كما ينبغى لضيفة مهذبة :

ـ ومن أين لأى واحد منا أن يدرى ؟ العسكريون وحدهم هم الذين يعلمون مكان القوات ، ومدى استطاعتها !

لقد كان من المجدى حقا لراحة أعصابهم أن يرحلوا بعيدا عن بيت (آل داود) ، وعن (رام الله) الغاصة بالخلق عن آخرها .

* * *

وبعد الخروج من البلدة درجت الطريق على طول الحافة العليا لخور عميق يقع بين التلال العالية ، فصار فى وسعهما أن ينعما بشىء من استرخاء الأعصاب .

وكانت التلال والوادى من تحتها مكسوة بالخضرة ، وفى الوادى مواضع متناثرة من الحقول المزروعة . والأغنام ترعى نباتات يانعة يطلقون عليها البرسيم الحجازى . . وهنا وهناك مربعات أنيقة بها بساتين التفاح والبرتقال ، تجرى بينها جداول الماء النمير . وكان الوادى كأنه يشدو طربا بما فيه من خضرة خصبة ، ولكن هذا الشدو انتهى بانتهاء الوادى .

وأخذ الطريق بعد ذلك يتلوى هابطا إلى أن انداحت الأرض كلها من حوله وغدت صحراء مترامية تحف بها تلال جرداء منخفضة بنية اللون ، حيث لا ماء ولا زراعة . وبعد أن مروا بمعسكر صغير منعزل من معسكرات البدو كان كأن خيامه

المنخفضة مصنوعة من شعر الماعز الأسود تحتضن الرمل ، لم تعد ثمة علامة واحدة من علامات الحياة .

وأحس (أنطون) قرقعة فى صماخ أذنه بسبب الانحدار الشديد الذى هبطوه ، فسأل : « هل وصلنا إلى مستوى سطح البحر ؟ » .

فقال له أبوه : « لا . إن الطريق إلى (أريحا) لم تزل طويلة يابنى » .

وشعر (بطرس) أيضا بالضغط الناجم عن الهبوط ، ولكن روحه المعنوية كانت فى صعود . وأنزل زجاج نافذة السيارة شوطا آخر ، لأن الحرارة كانت قد غدت الآن شديدة الوطأة . وراح يحملق من النافذة فى البرية القائظة ذات اللون البنى المصفر ، ثم التفت إلى (ماريان) باسما وقال لها فى سعادة :

ـ لا أثر هنا للناس . .

فردت على ابتسامته بابتسامة مثلها ، ووضعت يدها برهة فوق يده المتشبثة بمقبض عصاه الفضى وقالت :

ـ لقد أصبنا بالمجىء إلى هنا :

فقال لها : « لن يكون الجو هنا أشد حرارة من الجو فى (اللد) » .

فأجابته مستدركة : « كل ما هناك أن الهواء سيكون أقل ، لعدم وجود نسيم البحر » .

وعندئذ لاذ كلاهما بالصمت ، وشغلا بالتفكير فى الشريط الساحلى الطويل الممتد على البحر الأبيض المتوسط من (عكا) إلى (يافا) ، وهو الساحل الفلسطينى الذى يبدأ منـه السهل الكبير بكل ما فيه من بساتين البرتقال حتى التلال التى تتوج هامتها (القدس) .

أما الآن فلم يعـد ثمة فلسطين . وهـذا الساحل اضحى ساحل قطر جديد اقتطع من الوطن القديم . وهـذا القطـر الجديد أطلقوا عليه اسم « إسرائيل » . فلا ذهاب بعد اليوم إلى الشاطىء فى حر الصيف إن كنت فلسطينيا ، فليس أمام الفلسطينيين إلا الملح الأجاج فى البحيرة المعروفة باسم «البحر الميت » ، وهو بركة تخلفت عن انحسار البحر عن تلك الأرض منذ زمن سحيق جدا .

وتراءى البحر الميت على البعد وقـد استنزفت الحـرارة الشديدة كل ماكان له من اللون، مثلما استنزفت لون السماء.. تراءى عبر مشهد من الأرض « سيريالى » يحفـل بأشكال غريبـة منحوتة فى الرمل المتماسك المتصلب .. وإنه لمشـهد من مشاهد الأحلام ! ها هو هذا البحر الميت جاثما هنـاك ، ساكنا ، كأنه البحيرة المتألقة ، بين جبال (موآب) الداكنـة السمرة وبين طيات التلال من الجانب الآخر .

ورنا (بطرس) إلى البحر الميت فى ارتياح ، لأن ظهوره دليل على أنهم قـدصاروا غير بعيد من (أريحا) . و (أريحا) هى المكان الذى يتلهف على الوصول إليه . أما (ماريان) فرنت إلى ذلك البحر باعزاز ، لأنه مقترن فى ذهنها بالمرحلة الرومانسـية

القصيرة من حياتها ، وانها لذكرى أثيرة لديها جـدا ، وأما (أنطون) فنظر إلى ذلك البحر الميت بسرور ، وهو يفكر فى إقامة المعسكرات على شاطئه مع (أمين) ،ونزولهما للطفو فوق مياهه الساجية فى الليـالى القمراء . ثم انحنى فوق ظهـر المقعـد ليخبر الغلام الأعمى أين هم الآن ، وصاح بعد ذلك فى حبور : « سنحظى بأوقات هنيئة مرحة ! فالبحر الميت على الأقل ملك لنا لا ينازعنا فيه أحد ! » .

فقال له أبوه مصححا معلوماته : « بل هذا الجـانب منه فقط ، والشاطىء الشرقى على امتداده أيضا » .

فزمجر والد (أمين) وقال : « ومن ذا الذى تهفو نفسـه إلى هذا البحر الراكد العفن ؟ كان خيرا لنا لوبقينا فى (رام الله) » .

فقالت له (ماريان) من غير أن تلتفت إلى الوراء : « هـذا دأبك دائما يا (يوسف) ، لا تكف عن الزمجرة . ما من أحـد أرغمك على المجىء معنا إلى (أريحا) ! » .

ولم تكن (ماريان) تحب ذلك الرجل إطلاقا ، وكانت تتساءل دائما لماذا يطيقه (بطرس) !؟

وبوقار شديد أجابها (يوسف) : « أنا فى خدمة سيدى ! » .

وابتسم (بطرس) ابتسامة واهنة ، ولكنه لزم الصمت . فهو يبيح ليوسف أن يتذمر ويشكو ، لأنه خادم كفء ، وكل منهمـا يفهم الآخر . وهو يعلم أن الأمر لو كان بيد (ماريان) لطردت (يوسف) منذ وقت طويل ، ولكن (ماريان) لا تقدر الطهو الجيـد كما يقدره زوجها، (يوسف) فضلا عن مهارته فى قيادة السيارات

فهو طاه بارع جدا . فلا بد أن يكون سلوك مثل ذلك الخادم الثمين منكرا للغاية كى يقدم على طرده ، و (يوسف) إنسان لم يحدث منه إطلاقا ذنب يعاب عليه يتجاوز الزمجرة والتذمر ..

وجذبت زوجة (يوسف) الطرحة التى تغطى بها رأسها ولملمتها حول وجهها لتنأى بنفسها عن هذا التلاحى . وكانت هى أيضا تؤثر البقاء فى (رام الله) ، فـ (أريحا) هذه خالية من الحياة ، إنها ميتة مثل هذا البحر الميت . وكانت حرية أن تبقى هناك فى بيت (آل داود) مع والديها وأطفالها الآخرين إلى أن يحين أوان عودتهم جميعا إلى (اللد) . ولكن مثلما يدين زوجها بالولاء للسيد ، كذلك هى تدين بالولاء لزوجها .

وكان (أمين) أصغر أولادها الثمانية . ولها عدة أحفاد . وكان فراقها لأحفادها هؤلاء أشد على نفسها من فراق بنيها أنفسهم . و (أمين) أحب ابنائها إليها بسبب عاهته ، ولأنه ايضا مختلف عن الآخرين على نحو غريب ، فهو احد منهم ذكاء بكثير ، ولذا اهتم به السيد اهتماما خاصا وقرر ان يتلقى تعليما وافيا فى معهد مخصص للعميان . ثم أن بينه وبين ابن السيد آصرة اخوة .

ومن أمامهم بدات كتلة التلال فى الظهور ، وقد احاطتها الحرارة بهالة على البعد ، ومن فوقها أبراج كنائس القدس وكأنها إكليل يتوج هامتها ، وفى المقدمة تراءى «جبل التجربة» بقمته المسطحة وسط أرض تنمو بها أشجار السرو العالية . وفى منتصف الطريق إلى قمته تراءى دير الروم الأرثوذكس .

وقالت (ماريان) بينها وبين نفسها : « إن الرهبان فى هذا الدير لا بد أنهم يشعرون الآن بالانتعاش فى حجراتهم المنحوتة فى الصخر .. وأما الآذريون (الأقحوان الأصفر) الذى ينمو بين الأطلال فوق القمة فلا بد أنه الآن ذو لون ذهبى محروق من شدة لفح الشمس » .

وكانت قد صعدت هذا الجبل ذات مرة مع (بطرس) . فقد عقد قرانهما فى (القدس) ، ثم ذهبا إلى (أريحا) بناء على رغبتها لتمضية شهر العسل ، لأنها أرادت أن تمضى أول أسابيع حياتها الزوجية تحت سقف ذلك البيت الذى أطلق عليه اسم « دار السلام » . ففى زيارة سابقة لذلك البيت فى صحبة أبيها وقع نظر (بطرس) عليها لأول مرة ، فأبصر فيها ما كانت عازمة بإصرار على أن يتبينه لديها من أنها المرأة التى تحبه وتريد أن تتزوجه . وأنها الزوجة التى يستطيع أن يبنى بها بعد أن قضى سنوات من التيه العاطفى منذ هجرته « سرية » زوجته الأولى .. ثم هى فوق هذا وذاك ابنة صديقه الإنجليزى الحميم « روبرت ملبى » .

ولم تكن أمها سعيدة بذلك الزواج ، لا لأن (بطرس منصور) رجل فلسطينى ، بل لأنه أكبر من (ماريان) سنا بعشرين عاما ، ولأنه مطلق ، ولكن (ماريان) كانت مستعدة وهى فى سن الثلاثين أن تتزوج أباها ، ذلك أنها كانت تحب (بطرس منصور) لما فيه من صفات تحبها فى أبيها . وكان (روبرت ملبى) فى ذلك الحين ـ قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية ـ ناظر مدرسة للعميان من جميع الأديان فى (يافا) . وكانت تشرف على هذه

المدرسة جمعية رعاية العميان فى فلسطين ، ومركز هذه الجمعية الرئيسى فى (لندن) . وكان (بطرس) ـ بوصفه من أصحاب الأملاك البارزين فى المنطقة ـ عضوا فى مجلس الإدارة ، وكان يبدى اهتماما دائبا بادارة هذه المدرسة وتمويلها ، فنشأت بين الرجلين ـ بعد فترة من الميل المتبادل والاحترام ـ صداقة وطيدة .

وخيل لـ (ماريان) ان الرجلين على الرغم من الاختلاف الكلى بين نشأتيهما يتشابهان فى امور كثيرة ، أهمها الاتزان النسبى ورقى الشخصية . وكانت (ماريان) تعمل فى تلك المدرسة مدة خمس سنوات قبل زواجها ، فشعرت بجاذبية نحو (بطرس منصور) كان مبعثها فى البداية أنه صديق أبيها وشبيه به من وجوه كثيرة ، ولأنها كانت تقدر اتزانه . أما فورات غضبه فكان يغتفرها لديها ما فى طبعه من دفء وسحر ، وفطنتها إلى ما يعانيه من وحشة الوحدة ، ذلك أنه مسيحى من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، وعليه أن ينتظر سبع سنين كى يحصل على الطلاق . وكانت هذه الفترة قد انقضت وحصل على الطلاق فعلا قبل التقائهما بوقت قليل . ثم إنه لم يرزق من زواجه الأول بأطفال ، فزاد ذلك من وحدته . وقد بدأت العاطفة عند ماريان نوعا من الشفقة عليه وعلى وحدته . ثم لم تلبث فيما بعد أن سرت لتلك الوحدة لأنها أخلت الطريق أمامها كى تستولى عليه بكليته !

وقد تم زواجهما فى سنة ١٩٣٤ ، وعاشا فى بداية حياتهما الزوجية فى مزرعته بـ (يافا) بين حدائق البرتقال ، ثم بعد ذلك

انتقلا إلى (اللد) . وقد ولد ابنهما (انطون) الذى أسمياه على اسم جده لأبيه فى السنة التالية .

وكان (بطرس) وطنيا متحمسا ونصيرا مكافحا للقوى التى تعمل على حصول فلسطين على استقلاله . وكان صديقه (روبرت ملبى) يعطف على آرائه هذه أشد العطف ، إلى حد أن رؤساء « ملبى » فى مقر الجمعية بلندن كانوا يعتبرونه منغمسا فى السياسة اكثر مما ينبغى .

وبعد تبادل المراسلات بين (لندن) و (يافا) قررت الجمعية استدعاء « ملبى » . وقد زاد عناده الذى لا يلين من حرجهم وضيقهم به . ولم يحنق عليهم لذلك الإجراء بل عذرهم فيه ، ولكنه فى الوقت نفسه لم يكن مستطيعا أن يصنع غير ما صنع ، وهذا هو شعوره الحقيقى نحو المسألة الفلسطينية .

وكانت ماريان تعلم أيضا على نحو ما أن أباها قد سر بمغادرة فلسطين ـ برغم حبه العميق لها ـ ذلك أن اكثر من صديق واحد من أصدقائه العرب شنقوا بسبب نشاطهم السياسى ، (وفاقا للسياسة البريطانية فى فلسطين يومئذ) ، مما جعل الموقف فى نظره لا يطاق . وكانت عودته إلى إنجلترا فى سنة ١٩٣٨

وبقيت (ماريان) بعد ذلك مع زوجها وطفلها فى (اللد) . ولم تتأثر تأثرا ماديا كبيرا بالحرب العالمية عند اندلاعها ، ولكنها كانت شديدة القلق والتوجس بسبب وجود قاعدة حربية إنجليزية غير بعيدة من (اللد) فى (صرفند) . فكانت طائرات

الأعداء تحلق فوقها ، فتنطلق صفارات الإنذار بالغارات الجوية ويهرع الناس إلى المخابىء العامة . ولكن (آل منصور) وخدمهم كانوا يمكثون فى بيتهم معتصمين بلون من الإيمان بالقدر .

وفى الصيف كانوا يتوجهون إلى (رام الله) فيقيمون فى بيت يستأجرونه لذلك الغرض . أما فى الشتاء فكانوا يذهبون أحيانا إلى (أريحا) .وذهب (أنطون)إلى مدرسة فى (اللد) . وكان المفروض دائما أنه عندما يحين الأوان سيذهب إلى مدرسة الأصدقاء الأمريكية فى (رام الله) ، وهى مشهورة لدى الجميع بأنها خير مدرسة فى (فلسطين) . ولكن عندما جاء ذلك الأوان كان العام هو ١٩٤٨

وربيع سنة ١٩٤٨ هو ربيع النكبة . وتلت ذلك فى شهر مايو الحار معركة (القدس) !

* * *

وكانت بلدة (أريحا) الصغيرة خالية من العلامات الدالة على الحرب . فالشارع الرئيسى الضيق الكثير المنحنيات تظلله أشجار صغيرة يجلس تحتها الرجال على كراسى منخفضة فوق الرصيف ، أمام مقاه مفتوحة الأبواب على مصاريعها ، وأجهزة الراديو يلعلع صوتها من واجهات الدكاكين المفتوحة ، والحمير المحملة فوق طاقتها تسير فى تكاسل كالمعتاد . وعلى أبواب بعض الحوانيت يقف المسنون من الرجال وفى أيديهم مسابحهم الطويلة يحركونها وهم يتمتمون . والنساء

يتخطرن حاملات فوق رؤوسهن جرار الماء ، وصغار الأطفال متعلقون بأذيالهن .

ومضت السيارة البويك السوداء ببطء فى الشارع الرئيسى لتشق لها طريقا بين الناس والحمير وعربات اليد الصغيرة وعربات الجر والكلاب الضالة ، إلى أن وصلت حيث يتشعب الطريق إلى حارات ضيقة تمر بين مجموعات من أشجار النخيل ونبات الجهنمية الذى يكسو أسوار الحدائق .

وانعطف الطريق عند أحد أركان « جبل التجربة » ثم وقفت السيارة عند بوابة من الحديد المنقوش ، وبرز رجل رث الثياب من جوف خص تكاد تخنقه أوراق الموز الكبيرة ، فحيى وفتح البوابة .. ومرقت السيارة فى ممر ممهد تزدحم على جانبيه أشجار النخيل والسرو والجزورينا ، صوب بيت مربع ذى نوافذ بيضاء له شرفة عريضة فى طابقه الأول من الجهة المطلة على الجبل . وكانت ثمة غوطة برتقال على أحد جانبى الممر، أما الجانب الآخر فحافل بأشجار الورد والأزاهير .

وصعدوا سلالم قليلة الارتفاع إلى شرفة ذات أعمدة ، بها باب من الزجاج يفضى إلى داخل البيت . وكان رجل داكن البشرة حافى القدمين يرتدى حلة متكسرة من التيل الأبيض ينسق منضدة على تلك الشرفة ، فلما أبصر السيارة اعتدل فى وقفته وثبت فى مكانه كأنه جندى فى حالة انتباه . فلما برز سيده من السيارة رفع يده بالتحية ، فحياه بطرس وناداه باسمه ، فابتسم وأخذ يرحب بقدوم الأسرة وهو متهلل الأسارير .

وبعد قليل سأل سيده عن الأحوال فى اللـــد ـ فقد ترامت إلى اسماعهم حكايات رهيبة ـ ثم أعد مقاعد مصنوعة من القش لجلوسهم ... وبعد بضع دقائق جاء بأشربة حلوة وثلج وزجاجة ويسكى فوضعها فوق المنضدة بجوارهم .

ها هم آل منصور قد باتوا أخيرا فى دارهم .

وكان الجو حارا جدا ، وأسرع يوسف غاتى بمروحة وضعها فوق منضدة أخرى بالقرب من الموضع الذى جلسوا فيه ، فهبت عليهم منها أنفاس هواء ساخن . ولكن الهواء المتحرك أسهل فى التنفس من الهواء الساكن الذى يكاد يزهق الأنفاس . ووضعوا كلهم أقدامهم المتورمة والمهرأة فوق مواطىء خشبية ، وتركوا الاسترخاء المريح يسرى فى أطرافهم واوصالهم .

وكان أنطون مشوقا إلى اكتشاف الغابة الصغيرة المتروكة على الفطرة فى الحديقة ـ وهذا دأبه دائمـــا بمجرد وصوله إلى هنا ـ بيد أن قدميه كانتا تسـببان له ألمـــا شـديدا ، فاستلقى فى مقعده المصنوع من القش وهو يتساءل فى قلق متى سيكون فى مقدوره أن يذهب سائرا على قدميه إلى البحـــر الميت .

وبعد قليل خطر له أن يستعير دراجة من دراجات الخدم . ولكن واجهته مشكلة « أمين » . ولم يكن الشوط بعيدا غاية البعد إذا سلك المرء طريقا مختصرا عبـــر الصحراء ، الا أن على المرء فى هذا الأوان من الســـنة أن يحـــذر من الثعابين والعقارب ذات اللدغات المسمومة . وكانت هذه الفكرة فى حد ذاتها كافية لإضفاء التشويق الكافى على مشروع الرحلة .

وسأل انطون أباه وقد استولت عليه اللهفة فجاة :

ـ هل نعود إلى رام الله عندما يصبح ذلك مأمونا ؟ .

فقال له أبوه :

ـ ستذهب إلى المدرسة هناك فى الخريف إذا غـــدا كل شىء على ما يرام . أما أمك وانا فسنمكث هنا .

ولم يشأ أن يضيف إلى ذلك قوله :

ـ إلى أن تتسنى لنا العودة إلى (اللد) !

ولكن .. أين جيش التحرير الكبير الذى سيرد اليهود على اعقابهم ويلقى بهم فى لجة اليم ؟.. إن ما مـــر به من المحنـــة جعله لا يؤمن بوجوده فى الوقت الحاضر على الاقل !

وفجأة أيضا عاد أنطون يسأل أباه :

ـ هل فى مقدورنا أنا وأمين أن نذهب فنقيم معسكرا عندما تتحسن حالة أقدامنا ؟

فأجاب أبوه ، قائلا :

ـ ينبغى أن ننتظر إلى أن نتبين ماذا يحدث فى (لطرون) وفى القدس . فان استولى اليهود على القدس فلن يقفهم شىء عن التدفق صوب الجنوب . علينا أولا ان ننتظر ما ستتمخض عنه الأيام القلائل المقبلة .



— ٧ —

طال غياب « نصرى دجانى » — زوج نادية — إلى مدى لم يكن يتوقعه أحد .. إلى أن اطلق سراحه من معسكر الاعتقال مع غيره من الرجال الذين فى سن الخدمة العسكرية بمنطقة اللد والرملة فى وقت واحد تقريبا ، هو أواخر شهر أكتوبر . وفى خلال الأشهر الثلاثة التى انقضت بين الإحاطه بتلك المنطقة وبين إطلاق سراح نصرى ؛ حدثت أمور كثيرة جدا بعد مسيرة الخروج الكبرى من اللد :

فما أن انقضت ستة أيام على سقوط اللد حتى أوقف الزحف اليهودى عبر السهل الساحلى إلى (لطرون) . وقد تمكن من إيقاف هذا الزحف جنود فصيلة واحدة هى الفصيلة الثانية من الفيلق العربى ، مستخدمين مدفعا واحدا لا غير ، ركبوه فوق سقف مبنى الشرطة .

وكان اليهود قد أعدوا العدة لزحفهم ، ففضلا عن العدد الضخم الذى كتلوه من المشاة على اتم اهبة للهجوم ، كانت هناك خمس سيارات مدرعه ، ومع ذلك قضى المدفع العربى الأوحد على المدرعات الخمس ، ولم تستطع قوات المشاة أن تتقدم خطوة واحدة ..

وفى ساعة متأخرة من بعد ظهر ذلك اليوم المشهود بدأ التطبيق الرسمى للهدنة التى قررها مجلس الأمن ، وهى تلك الهدنة التى عرفت باسم « هدنة إطلاق النار ! » سخرية

بتلك الانفجارات التى لم تكف عن الصدور بعد إعلان الهدنة وتطبيقها من جانب القوات الإسرائيلية التى تستخدم المدافع الرشاشة ، ومن جانب المتسللين الإسرائيليين — افرادا وداوريات وقناصة يتربصون الفرص للغدر — حتى فقدت هذه الهدنة حرمتها وانقلب معناها فحق عليها أن ينقلب اسمها أيضا . وتوجه الكونت برنادوت إلى القدس للتباحث فى الوسائل الكفيلة بتحقيق الفاعلية المطلوبة للهدنة . وفى ذلك الوقت كان الجيش المصرى يدافع عن قطاع غزة . أما الجيش العراقى فكان فى شمال الأردن .

وما أن حان شهر اغسطس حتى كان أربعون ألفا من اللاجئين قد ضربوا خيامهم تحت إشراف شرطة شرق الأردن على جوانب التلال المحيطة بأريحا بجوار مجرى ماء .

وفى شهر سبتمبر اغتيل الكونت برنادوت فى القدس بيد الإرهابيين اليهود من عصابة (شتيرن) .

وفى أكتوبر كان الإسرائيليون قد حصلوا على أسطول جوى جديد كل الجدة هرب إليهم من تشيكوسلوفاكيا ، فاستخدموا هذه الطائرات الجديدة القوية فى ضرب القواعد العسكرية المصرية فى منطقة غزة بالقنابل . واخترقت قواتهم البرية الخطوط المصرية فاستولت على (حليقات) من جهة الغرب وعلى (بئر سبع) من جهة الجنوب ، وعلى (بيت حانون) إلى الجنوب من حليقات . وحوصرت فى (الفالوجا) حامية مصرية يبلغ تعدادها نحو ٢٥٠٠ رجل

وكان الذى يتولى قيادة إحدى فرق المشاة فى ذلك القطاع ــ قطاع غزة ــ الذى تعرض للاشتباك مع اليهود ، ضابط مصرى شاب اسمه جمال عبد الناصر .

وفى ٢٢ اكتوبر ، وهو اليوم التالى لسقوط (بئر سبع) ، وقف إطلاق النار رسميا . وفى تلك الاثناء كانت الكتائب الإسرائيلية تتحرك هابطة من (عرقوف) جنوبى (لطرون) متجهة صوب (حبرون) جنوبى أريحا . وكذلك وجه الفيلق العربى بعض قواته جنوبا ،، وتم إنقاذ حبرون على يد الفيلق العربى الذى استطاعت داورية استطلاع مكونة من سبع سيارات مسلحة من قواته إيقاع طابور إسرائيلى مكون من ثلاثين سيارة مسلحة فى كمين نصبته له .

وعلى اثر ذلك أقام الفيلق العربى مراكز دفاعية أسفل قرية (الظهيرية) جنوبى حبرون بقليل ، على الطريق إلى بئر سبع .

وفى ٣١ أكتوبر أذاع مراقبو هيئة الأمم المتحدة أن الإسرائيليين قاموا بمذبحة قتلوا فيها ثلاثين امرأة وطفلا من العرب فى قرية غربى حبرون أسمها (الدوايمة) .

* * *

وكانت نادية هى التى أبلغت نصرى فى النهاية نبأ اعتداء ذلك الجندى الإسرائيلى عليها ، وكانت حاملا فى شهرها الثالث وصحتها معتلة جدا .. بل أنها كانت أيضا على شفا الانهيار نتيجة للتوتر العصبى الطويل .

وقبل ذلك كان أبوها قد صحبها إلى طبيب فحصها وقرر أنها حامل ، بيد أنه رفض أن يضع حدا لذلك الحمل بغير موافقة الزوج ، إذ ليس من المحقق حتما ــ على حد تعبيره ــ أن الحمل حدث لها من ذلك اليهودى . وعبثا حاولت أن تبين له استحالة أن يرغب نصرى فى استمرار ذلك الحمل إلى أن تضع طفلا قد لا يكون من صلبه . فمجرد الشك هنا كاف للكراهة والرفض . ولكن الطبيب أصر بعناد على انه يجب أن يستوثق من الأمر ، من نصرى نفسه !

وصاحت نادية بضراوة :

ــ ولكن من يدرى متى سيعود ؟

وتوسل إليه فريد :

ــ نحن لا نجرؤ على الانتظار إلى أن يعود . لأن الأوان المناسب ربما يكون قد فات للاقدام على أى عمل عندئذ !

بيد أن الطبيب لم يتزعزع عن رأيه . وبعد مزيد من التفهيم والرجاء ، قال أخيرا :

ــ لم يزل فى الوقت متسع . وإذا لم يعد زوجها فى مدى شهر ، أعدكما بأن أنظر فى الأمر مرة أخرى .

وبعد شهر إلا قليلا ، عاد نصرى !

وكان ذلك الطبيب نفسه قد خلص الخادمة « رندا » من حملها ، كما خلص من الحمل فتاتين لاجئتين فلسطينيتين جاء بهما أبواهما . وكانت إحداهما قد افتضت بكارتها وأغتصبت أمام عينى أبيها !.. ولم يكن هذا الطبيب هو الطبيب الفلسطينى

الأوحد الذى تحدى القانون على هذه الصورة فى تلك الفترة ، مستريح الضمير ، ليمحو بعض آثار الفظاعات الإسرائيلية المقززة .

وكانت نادية طيلة ذلك الوقت تعانى من الغثيان باستمرار ، وتتلهف على عودة زوجها ، وإن اشفقت جزعا من تلك العودة !.. ثم فجأة ، وبغير إنذار سابق ، عاد نصرى . عاد قذرا أشعث ، رث الثياب ، منهك القوى لأنه مشى معظم الطريق من اللد إلى رام الله . وكان شاحب اللون هزيلا بسبب مافقده من وزنه — وكان لا يقل عن عشرين رطلا — وكانت أعصابه غاية فى التوتر .

ونصرى دجانى شاب كانت الحياة خفيفة العبء عليه جدا ، إلى أن حدثت كارثة تقسيم وطنه . فأبوه ثرى كريم متساهل ، وله زوجة جميلة شابة وطفلان ، وهو متعلق بثلاثتهم تعلقا شديدا ، وعاش معهم عشة طيبة راضية هينة فى قصر الأسرة بيافا . ولما بدأ القتال فى تلك المنطقة فى شهر مايو هرب بأسرته من يافا إلى دار أصهاره آل منصور فى اللد .

وكانت هذه الهجرة نهاية شبابه اللاهى غير المكترث . ومع ذلك كان الشاب الذى اعتقله الجنود الإسرائيليون فى منتصف يولية يتمتع بشىء من الخفة والمرح فى سلوكه ومظهره . أما نصرى دجانى الذى دخل رام الله أشعث اغبر أعرج فى نهاية أكتوبر ، فكان يبدو أكبر سنا من حقيقته بكثير ، وحول فمه خطوط لم يكن له بها عهد من قبل .

ولكن هذا كله لا يمنع من اعتبار نصرى أحد المحظوظين من حيث أنه كان يعرف أين يبحث عن أسرته بعد إجلاء أهالى غزوة عنها ، إذ المفهوم دائما أنهم سيتوجهون إلى بيت داود فى رام الله إذا اضطروا لمغادرة (اللد) .

ولم يكن يعذبه فى الحقيقة إلا عدم معرفته كم منهم لم تقتله محنة الخروج من اللد إلى البرية ، وما الذى حدث لزوجته وطفليه ووالديه وسائر أفراد أسرته . فظل طوال الطريق يهذى يتخيل ما قد يجده فى انتظاره من أنباء الفواجع عندما يصل إلى رام الله . وكلما وقع نظره على حشود اللاجئين المعسكرين فى كل مكان شعر بالدم يغلى فى عروقه لما هم عليه من التعاسة والضياع .

أما الشارع الذى تظلله أشجار السرو ، وهو الذى كان يطلق عليه البعض أحيانا اسم شارع العشاق — لما تلقيه ظلال تلك الأشجار من الظلمة على أركانه فى المساء — فهو الآن قد صار بحق شارع اللاجئين ، وكانت موجات من التعاسة البشرية تفيض عنه فترتطم ببوابات بيت داود ، بل وتتسرب إلى حديقته ذاتها .

وعندما انعطف نصرى إلى الشارع ، تحت رعاية الخادمة رندا ، استطاع أن يبصر طفليه يلعبان قرب البيت ، فأطلق صيحة ، وأقبل الطفلان يجريان ويطلقان صيحات الدهشة والسرور . أما الفتاة الخادمة فأجفلت وولت الأدبار صاعدة السلم ، واجتازت البهو مارقة كالسهم إلى داخل الدار .



وعندما انعطف نصرى الى الشـارع ، تحت رعـاية الخادمة رندا ، استطاع أن يبصر طفليه يلعبان قرب البيت ، فاطـلق صيحة واقبلَ الطفـلان يجريان

وبعد لحظة عادت مع نادية ، يتبعهما والدا نادية . وفطن نصرى إلى وجود ماجدة وفريد ، ولكن عينه لم تبصر حقـا سوى زوجته وقد ارتدت ثوبـا أبيض له حزام أحمـر وهى تجرى هابطة السلالم صوبه .

❋ ❋ ❋

وبعد موجة المعانقة والترحيب والاستفسارات والاطمئنان على أبويه اللذين عرف الآن أنهما يقيمان فى دارهما بالقدس، توجه نصرى أولا إلى الحمام حيث اغتسل وبدل ثيابه . وكان الحمام قد أعد له على عجل، وأمده خليل بالثياب ، بينما انتحت حماته ماجدة جانبا بابنتها نادية ، فى اضطراب شديد ــ أثناء وجوده داخل الحمام ــ وقالت لها :

ــ عندما يخرج من الحمام سيكون عليك أن تذهبى إليـه فى حجرة النوم . فماذا أنت مزمعة أن تفعلى ؟ ماذا ستقولين له ؟

فأجابتها نادية :

ــ الحقيقة طبعا . فانا لا أشعر الآن ، وقـد عاد ، بأدنى خوف ، لأنه عانى بنفسه تجربة قاسية على يد اليهود ، ولذا سيفهم الموقف . وأنا واثقة انه سيذهب معى إلى الطبيب .

فقال لها أمها فى قلق :

ــ وكيف يمكنه أن يقطع برأى ؟ قد يداخله عندئذ الخـوف من أن يكون ذلك الجنين من صلبه !؟

فردت عليها نادية بثقة :

ــ إنه لن يترك شيئا للمصادفة . لن يجرؤ على ذاك .

فهزت أمها رسها بارتياب ، وقالت :

ــ ليس فى وسعك أن تجزمى بذلك . فللرجال طبائع غريبة . وقد يثيره النبأ فينقلب عليك . ماذا ستفعلين إذن ؟

فقالت نادية بمرارة :

ــ سانتظر ! اليس هذا ما فرض علينا نحن الفلسطينيين أن نجيده ؟

وتنهدت ماجدة ، ثم نهضت قائلة لها :

ــ كان الله معك . سأصلى من أجلك .

وكان هذا الحديث قد دار خارج البيت فى الشرفة ، ونهضت نادية بدورها وتبعت والدتها إلى داخل البيت ، فتوجهت ماجدة صوب المطبخ ، بينما صعدت نادية إلى الطابق الأول .

ولم يلبث أن خرج نصرى من الحمام مرتديا عباءة حريرية من عباءات خليل ، فبدا فى عينى زوجته ــ بعد أن حلق لحيته ــ اقل شحوبا وهزالا . ومرة أخرى أحست بمبلغ وسامته ، فازداد خفقان قلبها وتوجسها .

وقال لها نصرى يطمئنها باسما :

ــ ها قد أصبحت إنسانا جديدا .

ودلفا إلى حجرة النوم معا ، وأدار نصرى المفتاح فى الباب ، ثم أخذها بين ذراعيه وقال لها ببساطة :

ــ ما أطول وأشد ما اشتقت إليك ! لن تصدقى مهما قلت لك ! وعندما أبصرتك تهبطين السلم وتجرين على أرض ممر

الحديقة المفروشة بالحصباء الملونة لتستقبلينى ، شعرت أنك أحلى واشهى من أى وقت مضى !

وتبادلا قبلات عميقة ، وسمعت قلبه يدق دقا عنيفا . ولما بلغت القبلة الحارة ختامها المحرق شرع يجذبها برفق صوب الفراش ، ولكنها ابتعدت وقد أكفهر لونها اكفهرارا شديدا ، وقالت له بصوت أجش .

ــ نصرى ، عندى ما أقوله لك . وأنه لرهيب !

وفى هذه المرة كان الخفقان العنيف صادرا عن قلبها هى . . وحملق فيها منتظرا . ولما لم تتكلم ، سألها وقد اعتراه الخوف فجأة :

ــ ما الخبر ؟

فقالت فى الم شديد :

ــ عندما اعتقل جميع الرجال فى ذلك اليوم المشئوم ، جاء جنديان يهوديان إلى البيت وطلبا ماء ليشربا ، وقالا إنهما من (الباجاناه) . ونزلت إليهما « رندا » بالماء ، فجرها أحدهما قسرا . .

وتوقفت عن الكلام . وراح ذهنها ينقب عن الألفاظ المناسبة للتعبير عن بقية المأساة . ووقفا برهة ينظر كل منهما إلى الآخر بعمق وفزع ، ثم أشاحت نادية بنظرها عنه كى تجد فى نفسها القدرة على مواصلة الكلام :

ــ جرها قسرا إلى داخل حجرة . وسمعناها تصرخ ، فأسرعت أنا وماريان نهبط السلالم لنجدتها . وعندئذ . . عندئذ قبض الجندى الآخر على عنوة !

ونظرت إليه مرة أخـرى ، فى يأس .. وبعـد قليل قالت بصوت مرتجف حاد :

ـ لقد قاومت وناضلت ، ولكنه كان شـابا وكان قـوى البنية جدا ..

وفجاة استطردت من غير مناسبة أو اتصال بما قالت آنفا :

ـ إنه لبنانى أمريكى .

واستمر يحملق فيها من غير أن يتكلم . وفجاة انفجـرت براكينها ، وصرخت فيه ، قائلة :

ـ لا تنظر إلى هكذا ! لم يكن الذنب ذنبى ! الا تصدقنى ؟ انا الآن حامل فى الشهر الثالث ، ويكاد الجنون يطبق على من فرط القلق والانزعاج ! يجب علينا أن نفعل شيئا لمواجهـة هذه النكبة . وثمـة طبيب مسـتعد إذا وافقت أنت .. إذا ذهبت معى إليه أن ...

وترنحت ثم هوت على الفراش وهى تبكى بكاء هستيريا .

وظل نصرى واقفا يحملق فيها . وفجاة شعر ببرودة شديدة تسرى فى أوصاله ـ مع أن اليوم كان حارا ـ فارتجف وجمع عباءة خليل حول جسمه فحرره ذلك التصرف من سباته ، واتجه نحو السرير وجلس عليه بجوارها ، ولكنه لم يلمسها .

وبعد برهة صمت قال لها :

ـ لقد كان من رأيى دائما انه ما من امراة يمكن أن يغتصبها رجل بغير إرادتها . فكيف يمكن لرجل أن ينـال وطـره من

امرأة إن هى ثابرت على الرفس والمقاومة ؟ انا شخصيا لم افلح فى ذلك ، فلماذا يستطيعه هذا اليهودى ؟

فرفعت رأسها عن الفراش وحملقة فيه مشدوهة ، وقالت لـه :

ـ الا تصدقنى ؟ أيخطر ببالك اننى من الممكن أن أسلم نفسى لجندى يهودى على هـذا النحو بمحض إرادتى ؟ لقـد كانت « رندا » فى تلك الحجرة ذاتها فى ذلك الوقت . وفى وسعك أن تسألها . رن الجرس ! أرسل فى طلبها !

ولما وجدته لا يحرك ساكنا حاولت أن تتحامل على نفسها وتغادر الفراش كى تصل إلى زر الجرس بجوار البـاب . ولكنه أمسك بمعصمها وقال لها :

ـ لا ! أنا أصدقك . طبعـا أنا مصدق ما قلت ! ولـكنه شىء رهيب جدا ! زوجتى أنا يعتـدى على عرضها رجل .. ورجل من حثالة اليهود !؟ يا إلهى !

ودفن وجهه فى راحتيه ، ثم نظر إليها فى إشفاق ، وقال :

ـ فى تلك الليلة الأخيرة قبل أن يأخذونى .. كان ما تعلمين بيننا . فمن الجائز أن يكون هذا الحمل منى .

فهتفت فى حنق :

ـ ولكننا لا نستطيع أن نعلم . ولا يمكننا أن نقطع براى على وجه اليقين . يجب أن نذهب إلى الطبيب يا رجـل ! وبسرعة ! أنا الآن فى الشهر الثالث !

ومدت يدها فلمست وجهه الشاحب ، وقالت :

ـ نصرى ! شـد ما اشـتقت إليك ! شـد ما اشتقت إلى اجتماع شملنا من جديد ..

فتناول يدها تلك وضغطها على صفحة خده ، وقال :

ـ أنا أيضا كنت شديد الشوق إليك . ولعل شوقى إليك كان اشد من شوقك أنت إلى .

وقبل باطن يدها ، ثم فجاة نهض وقد ثارت مراجله :

ـ الم يكف اليهود ما صنعوه بنا ، وقد اغتصبوا وطننـا وديارنا وأراضينا ؟ هل كان لا بد لهم أن يغتصـبوا نسـاءنا ايضا ؟!

واتجه عبر الحجرة إلى مائدة الزينة ففتح صندوق سجائر استخرج منه سيجارة فأشعلها . ثم قال بعد أن جذب نفسـا منهـا :

ـ وهو كذلك . سنذهب إلى الطبيب وسيجهضك . وبعد أن اطمئن على سلامتك ساتوجه إلى عمان وانخرط فى سلك الفيلق العربى . فهم بحاجة هناك إلى الرجال . وإذا واتانى الحظ ساقتل بضعة من اليهود قبل أن ينتهى القتال !

وبعد لحظة سألها :

ـ وماذا حدث لرنـدا ؟

فأجابته نادية :

ـ اجهضها الطبيب . ولكن الشاب الذى كان على وشـك الزواج منها يقول الآن أنه لا سبيل إلى ذلك الزواج بعـد أن فقدت بكارتها . فأسرته من الفلاحين المتزمتين ، ومن تقاليدهم أن يرقصوا ليلة الزفاف بالمنديل المخضب بدم بكارة العروس على دقات الموسيقى . وحيث أنه لا دم هناك لتخضيب المنديل فلا عرس ولا زواج !

فزوى نصرى ما بين حاجبيه ، وقال :

ـ إن التدليس فى هذه الأمور مستطاع وميسور . فهناك اكثر من وسيلة لتلطيخ منديل العرس بالدم !

فأجابته نادية :

ـ أعتقد أنه زاهد فى الزواج منها الآن . لأنه سيتذكر كلما اجتمع بها ذلك اليهودى الذى سبقه إليها فكان أول من عرفها!

وازداد تقطيب نصرى ولم يتكلم . وعاوده الشعور بالبرد وارتجف ، فقال لها :

ـ الأفضل أن البس الآن ثيابى . فانى أشعر بالبرد بعـد الحمام الساخن . ساعدينى على اللبس .

فنهضت نادية عن الفراش وتوجهت إلى مائدة الزينة حيث مررت المشط فى شعرها ، ثم قالت بتبلد :

ـ ينبغى ألا تصاب ببرد . ها هى الثياب المعـدة لك . وسأمضى أنا إلى المطبخ لأرى ماذا يعدون للغداء .

***

وبمجرد أن استطاعت ماجدة الظفر بابنتها فى خلوه ، بعيدا عن المطبخ المزدحم ، سألت نادية بقلق :

— هل كل شىء على ما يرام ؟

فقالت لها نادية بشرود :

— نعم . وسنذهب معا إلى الطبيب .

فسكتت أمها برهة ، ثم سألتها :

— ولكن من جهة أخرى ، الم يحنقه ذلك عليك ؟ الم يحملك وزر ما حدث ؟

فبادرت نادية تقول لهـــا :

— لا . مطلقـــا !

بل واستطاعت نادية ، زيادة فى طمأنينة أمها ، أن تحمـــل شفتيها على الافترار عن ابتسامة صغيرة . وعندئذ تمتمت ماجدة :

— أشكرك اللهم ! ما اكرمك يارب !

— هكذا أقول دائما لأبيك . ولكن أباك يأبى دائما أن يصدقنى وأن يؤمن برحمة الله !

— ٨ —

أعدت مأدبة خاصة فى ذلك المساء احتفالا بعودة نصرى من المعتقل اليهودى . ولم تـكن مأدبة فاخـــرة كمآدب الأيام الخوالى ، لأن النقص فى الأقوات بمدينة رام الله كان شـــديدا جدا بسبب ضـــغط اللاجئين وحالة الحـــرب — برغم توقف العمليات العسكرية — ولكن الحمل المشوى التقليدي قـــدم صحيحا على المائدة بأكمله ، بما فى ذلك الرأس ، فوق وسادة ضخمة من الأرز المحمر بالمكسرات ..

واتصلت « منى » تليفونيا بدار السلام — فى مدينة أريحا — كى تدعو بطرس وماريان لحضور ذلك الحفل ، ولكن بطرس لم تكن صحته على ما يرام ، فقـــد عاودته علة قلبه القـــديمة كما قال لأخته . وركب خليل سيارته إلى القدس ليأتى بوالدى نصرى وبقيـــة الأقارب الذين يعيشون فى القـــدس والأماكن المحيطة بها ، ولم يكن يشارك أصهاره فى تخوفهم من دخول المدينة المقدسة .

وكان رجال الفيلق العربى بعقالهم الأبيض والأحمر يقفون أمام تحصينات أسوار المدينة القديمة التى ترجع إلى القـــرن السادس عشر . وكان من الضرورى ان يتجنب خليل الدخول من بوابة دمشق ، لأن كنيسة النوتردام التى تقع تجاهها — والتى دمرتهـــا المعارك — لم تزل فى أيدى القوات الإسرائيلية التى تسلط المدافع الرشاشة على تلك البوابة من نوافذ الكنيسة . وهى منطقة مشهورة أيضا بكمون القناصة فيهـــا . وأولئك

القناصة يشكون السأم ، ولذا يسلون أنفسهم بتذكير المدنيين العرب بأنهم ما زالوا هناك ، بتوجيه القذائف إليهم عندما يمرون فى الرحبة التى أمام البوابة ، ضاربين بالهدنة عرض الحائط !

وسلك خليل الطريق المار أمام المتحف إلى حى الشيخ جراح شمالا ، ثم أدار راديو السيارة على محطة إسرائيل التى كان يصغى لإذاعتها ـ فى اهتمام ممزوج بالألم ـ بضع مرات فى كل يوم . وإذا صوت رجل ، وإن كان صوتا ناعما ، يتكلم العربية الفصحى معلنا ضرورة الاستيلاء على (العقبة) ، الميناء الواقع على الخليج المعروف باسمها عند رأس البحر الأحمر ، وفى الجنوب الأقصى من (النقب) ، وهى المنطقة التى منحها لليهود مشروع التقسيم الذى أقرته هيئة الأمم المتحدة .

وما أن سمع خليل ذلك حتى أغلق الراديو حانقا . فالعقبة آخر منفذ لشرق الأردن على البحر الأحمر بعد أن أغلقت فى وجهها موانىء فلسطين المسلوبة على البحر الأبيض . واستمر خليل فى طريقه بسيارته إلى أن وقف على طريق رام الله عند فيلا حديثة مزخرفة يقيم بها والدا نصرى مع نفر من ذوى قرابتهم الأدنين . وكانت الشمس قد جنحت للغروب فى بهاء أخاذ ألقى أشعته القرمزية المذهبة على القباب والمآذن وأبراج الكنائس الضاربة فى سماء القدس ..

***

ساء منى من أخيها الأكبر بطرس أن يعتذر من عدم القدوم إلى رام الله تلبية لدعوتها ، كما ساءها منه قبل شهور أن يرحل إلى أريحا غداة وصوله من اللد . وكانت واثقة أنه رفض الحضور لأنه لا يريد ذلك ، لا بسبب توعك صحته كما قال . والحق أنه لم يحبب «خليل» فى أى يوم من الأيام . وهو الآن حانق عليه لأنه لم يمسسه أذى أو خسارة من تلك المأساة الوطنية الفلسطينية .

ولم يخفف من حدة غضبها ما أكده لها أخوها فريد أشد التأكيد من أن بطرس تأذت صحته كثيرا جدا منذ تلك المسيرة الوحشية من اللد عبر البرية . وقالت له ردا على ذلك :

ـ من عادة بطرس أن يدعى المرض أو التوعك كلما وجد فى ذلك ما يوافق هواه . أن حالة قلبه ليست من السوء كما يدعى ، فقد مكنته من تحمل تلك المسيرة بكل مشاقها ، حيث هلك فيها كثيرون لا يدعون مثل علته . أنه يريد دائما أن يفعل ما يحلو له ، ويأبى أن يفعل ما لا رغبة له فيه !

والواقع أنها كانت شديدة الغضب عليه لأنها تحبه أشد الحب ، ولأنه آذى شعورها .. ولكن « فريد » كان على عكسها شديد القلق على صحة أخيه بطرس ، وقرر أن يذهب لزيارته والاطمئنان عليه بمجرد الفراغ من مشكلة نادية والاطمئنان على صحتها ومصيرها . ولعله يتمكن من الذهاب إلى هناك فى عطلة آخر الأسبوع مع أنطون الذى دخل مدرسة الأصدقاء الأمريكية منذ سبتمبر ، ولذا فهو يعيش معهم فى رام الله .

أما نصرى فقد أسعده كثيرا أن يرى أبويه . ولكن فيما عدا ذلك لم يأبه كثيرا سواء حضر بطرس منصور أو غير بطرس منصور أم لم يحضروا . بل إنه فى الظروف الدقيقة التى يجتازها كان يفضل الا تقام حفلة على الإطلاق بمناسبة قدومه .

أجل أنه عاد إلى أهله بعد غيبة طال أمدها وساوره وساورهم فيها القلق ، ولكن رجوعه إلى زوجته وطفليه لم يتمخض عن تحقيق حلمه الذى عاش فيه تلك الشهور الثلاثة ، بل الفى نفسه يعيش فى دوامة كابوس مروع صار يتمنى الخلاص من عذابه لينطلق بعيدا مرة أخرى .. بعيدا إلى عمان ، حيث يتدرب فى صفوف الفيلق العربى ، ثم ينطلق إلى أى مكان يوجهونه إليه ، بشرط أن يتمكن من مقاتلة العدو .. فيقتل ويقتل .

وكانت نادية فاتنة جدا بشعرها الفاحم الغزير ووجهها الشاحب البيضاوى وعينيها الواسعتين . كانت جميلة فى عذوبة . ومع ذلك فانه كلما نظر إليها الآن تذكر على الفور ذلك الجندى اليهودى الشاب وهو يتحسس بدنها البض ، ويلقى بجسده فوق جسدها ، وينالها ، ويقضى لبناته القذرة منها . يتذكر هذا فتغلى دماؤه ولا يفكر فى شىء سوى الانطلاق . الانطلاق ليقتل ويشفى غليله بسفك دماء السفاحين!

ولكم قال لنفسه أنها تعذبت أكثر مما تعذب بتلك التجربة الرهيبة ، وأن من واجبه أن يرحمها ويرثى لها ، وأن يمتلىء قلبه ويفيض حبا لها وحنوا عليها . ولكن سائر هذه المشاعر

كانت قد ماتت لديه ، ولم يعد فى مقدوره أن يشعر بشىء اللهم إلا هذه الغيرة الوحشية ، وإلا الجمود الفظيع فى جوانحه وعواطفه الرقيقة .

أنه يتمنى الآن أن تنتهى هذه المأدبة ، لأن قلبه عاجز عن المشاركة فيها . ومع هذا فهو مشفق من الليل ، ومن رقاده هامد الجسد عاجزا عن التجاوب مع زوجته والاقتراب منها .. وهى الحلوة الجميلة الرقيقة المحبة . انها زوجته وحبيبته وأم أولاده . انها تحبه ويحبها ، ولا ذنب لها بل هى مجنى عليها . ولكنه لا يستطيع أن ينسى أنها عرفت رجلا آخر ، وأن هذا الرجل ينتمى إلى العدو !

أما أنطون فكان مستثار النفس لمرأى نصرى مرة أخرى .. فزوج نادية ابنة عمه شخصية رومانسية بطولية فى نظره . أليس قد أخذه اليهود إلى معسكر للاعتقال وثبت للمحنة وخرج حيا منها وعاد إليهم ليقص عليهم قصته ؟!.. ثم أنه يعتزم الرحيل لينضم إلى الفيلق العربى ويعاون فى إلقاء اليهود إلى البحر !.. أن انطون لم يزل مؤمنا — شأنه فى ذلك شأن معظم الفلسطينيين — أن إلقاء اليهود إلى البحر أمر محتوم الوقوع . لقد كان طول حياته يحب نصرى ، ونصرى يحبه أيضا . بيد أن نصرى الذى عاد اليوم إلى رام الله يختلف كثيرا عن نصرى الذى يعرفه . إنه لم يعد يرسل ضحكاته المرحة أو نكاته ومزاحه وتهريجه . به إنه لم يعد يبتسم ولا يتكلم إلا إذا وجه إليه الكلام أحد .. وعندئذ يغمغم ببضع كلمات ثم يسكت . لقد أصبح يبدو أكبر سنا من حقيقته بكثير جدا .

واستقر رأى انطون على أن السبب فى ذلك ما عاناه نصرى على يد الإسرائيليين . ولعلهم عذبوه . وسيكون على ما يرام عندما يقضى فى البيت فترة من الوقت مع نادية والطفلين .

وبنت عمه نادية أيضا لاحظ عليها اختلافا شديدا منذ جاءوا إلى رام الله . فهى كذلك لا تضحك ولا تمزح ، بل ولا تلاعب الطفلين . أنهـا على قول زوجـة عمـه ماجدة ليست على ما يرام صحيا . وقد تجرى لهـا جراحة ، وهم ينتظرون عودة نصرى كى يذهبوا بها إلى الجراح ليشفيها ممـا بهـا .

وفجاة عاد نصرى ، وشرعت عمته وزوجة عمه فى العمل بنشاط ، توجهان الخادمات والخدم وتصدران إليهم الأوامر ، بل إنهما اشتركتا شخصـيا فى أعمـال المطبخ إنجازا للوليمة الكبرى . وطير النبأ السار إلى جميع الأقارب والأصدقاء ، ودعوا للحفلة . الا ما أشبه ذلك بجو الاحتفال بعيد الميلاد .

لقد خيب آمال انطون كثيرا أن والديه لم يتمكنا من الحضور . وانتابه القلق على أبيه الذى لم تكن صحته على ما يرام منذ غادروا اللـد . ولكنه عندما قال ذلك لعمته « منى » أجابته متسائلة فيما يشبه الغضب :

ـ وماذا تتوقع أن يكون حاله وقد أصر على البقاء هناك فى (أريحا) طول الصيف ..؟

ثم لم تلبث أن أردفت :

ـ لابد انهما مجنونان .. كلاهما !

واكنهما لم يكونا مجنونين ـ فى نظر الصبى المحزون ـ بل

هما شقيان فقط ، محطما الفؤاد . وعندما يكون هـذا حالك فانك تحب أن تعتكف فى دارك . ودار السلام هى دارهمـا الحقيقية . فمهما ألح زوج عمته خليل على أبيه قائلا : « ان دارى هى دارك ! » فى كرم عربى أصيل صادق ، فالحقيقة الواقعـة أن هـذه الدار هى دار آل داود وليست دار آل منصور . وبطرس منصور ـ كما يعلم ابنه تمام العلم ـ رجل متعود على الأمر والنهى فى داره ، وعلى توجيه خدمه وتصريف شئون بيته على طريقته الخاصة . ولا سـبيل إلى أن يشعر إلا بأنه « ضيف » فحسب فى أى دار غير داره ، ولو كانت هذه الدار دار زوج شقيقته !

ولهذا كله كان أنطون يدرك أنه من الأيسر والأجدى على والديه أن يظلا فى اريحا رغم انخفاضها الشديد ورغم حرارتها الرهيبة فى فصل الصيف .

أما هو شخصيا فيفضـل الإقـامة فى رام الله فى الوقت الحاضر ، بعد أن تغلب على شعوره بالخوف من هجوم اليهود عليها ، فهو يحب مدرسة الأصدقاء الأمريكية ويزهيه ما يقال عنها من أنها خير مدرسة فى فلسطين بأسرها .

والحق أنه سرعان ما أخلـد إلى الاستقرار فى رام الله ، بيد أنه شعر بالوحدة والافتقار إلى الأصدقاء منذ رحل أمين ليدخل مدرسة العميان فى بيت لحم . وكان بطرس قد رتب له هذا المصير . وبعد ذلك صفت علاقته ببنات عمته بمجرد زوال غشاوة الحياة الأولى لـدى الطرفين . ولكنه لم يستطع أن يشعر بحرارة الصداقة حتى بالنسبة لمن كانت منهن فى مثل

سنه . إذ لا يسعه أن يذهب مع فتاة لإقامة معسكر فى الخلاء أو للسباحة ، ولا أن تشاركه فى الاهتمام بلعبة كرة القدم . فقصارى الأمر بينه وبين بنات خليل داود علاقة تقوم على التسامح المتبادل ، فهن لا يبالينه وهو لا يباليهن . أما موضوع الصداقة فلا محل له فيما بينهم ، فلهن دنيا البنات الخاصة بهن ، وما أبعد هذه الدنيا عنه وعن تفكيره . وفيما يختص بسائر الأمور العملية كان التباعد بينهم تاما على نحو ما يجرى به العرف من التفريق بين الجنسين فى كنائس فلسطين فى أيام الأحد تماما ..

وفى وليمة العشاء جلست الفتيات مع زوجة عمه ماجدة ونفر آخر من الفتيات والنساء إلى مائدة صغيرة فى حجرة ملحقة بحجرة الطعام ، لأنه لم يكن هناك متسع للجميع على المائدة الكبيرة ، وهكذا بدت الوليمة وكأنها قد قسمت قسمة طبيعية إلى فريقى الرجال والنساء . وإن كان رأى خليل ـ فيما بينه وبين نفسه ـ أن هذا من تأثير العرف الشرقى العتيق الذى يأبى إلا أن يثبت وجوده ..

وجلست نادية بجوار نصرى على المائدة الكبيرة ، وجلست منى وخليل معا فى الوسط . وكان انطون سعيدا بجلوسه إلى جوار نصرى من أحد جانبيه ، وإلى جوار عمه فريد من الجانب الآخر ، وعمه هو أقرب الناس واحبهم إليه بعد أبيه . وقال الجميع أنها لخسارة إن لم يتمكن بطرس وماريان من الحضور .

وقبل أن يدعى الجميع للجلوس إلى المائدتين أقبلت على

انطون بنت عمته الكبرى ومعها فتاة تمسك بها من يدها ، وقالت له :

ـ هذه هى صديقتى « ثريا » . وهى زميلتى فى المدرسة. ووالدها هو الدكتور سابا الذى يعرف والدك معرفة وثيقة .

وكان انطون يعتبر تقديمه إلى أى إنسان ، ولا سيما من الجنس الآخر، بمثابة محنة له ، بيد أنه ارغم نفسه على النظر إلى الفتاة وغمغم بعبارة من العبارات المهذبة المتعارف عليها. وبدت له الفتاة من النوع العادى جدا ، ولا تثير اهتماما خاصا ، فيما عدا أن أباها يعرف أباه . وسألها انطون على سبيل التأدب :

ـ هل أنت من (اللد) ؟

فأجابته ثريا ، قائلة :

ـ لقد ولدت هناك . ولكن أسرتى انتقلت إلى هنا بعد ذلك بقليل . وقد حضر والدى ليرى بطرس بك بمجرد ان سمعنا بوجودكم هنا ، ولكنكم كنتم قد رحلتم إلى أريحا .

فسألها انطون :

ـ وهل والدك موجود هنا الليلة ؟

فقالت ثريا :

ـ لا . فهو الآن موجود فى أمريكا لحضور مؤتمر طبى . وعندئذ قالت له بنت عمته فى افتخار :

ـ ثريا سوف تدرس الطب .

وضحكت الفتـــاة فى خجل فبـدت أسـنانها الكبيرة غير المتناسقة . واحس انطون على الفور انها اقرب إلى القبح . وسمعها تقول :

ــ اتمنى ذلك ، ولكنى لا أدرى هل أفلح أم لا ..

فقالت صديقتها فى ولاء وحماسة :

ــ طبعـا ستفلحين ! يجب أن تؤمنى بقـدرتك وتثقى بنفسك .. قل لها هـذا يا انطون !

فقال لهـا انطون بارتباك !

ــ نعم . هـذا صحيح .

وعندئذ أحس ارتياحا كبيرا إذ أعلن ان العشاء قد أعد ، وان على الجميع ان يجلسـوا إلى المـائدة . وأثنـاء تناول الطعام نظرت الفتاة صوب أنطون عدة مرات ، ولكنها لم تفلح فى التقاء عينيها بعينيـه !

وقدم خليل لضيوفه شراب العرق ، وشـيئا فشيئا حلت عقـدة لسان الرجال وانطلقوا فى الأحاديث ، ما عدا نصرى الذى لم يشرب من العرق إلا مقدارا قليلا جدا وظل صامتا ، وهو الذى كان مجرد وقوع نظره على كأس من العرق كافيـا لأن تتألق عينـاه ويبدو عليـه أن مجرد مداعبة رائحة ذلك الشراب لأنفه تبهج قلبه وتثمله !

وشرب الرجـال نخبـه ، متمنين له استعادة العافيـة والانشراح ، مرحبين بعودته ، راجين له التوفيق فى القتال مع الفيلق العربى ، وأن يعود سريعا إلى بيته فى يافا . وكان فى

كل مرة يقول لهم : « شـكرا » ، ثم ينحنى لهـم انحنـاءة يسيرة . وهو مجفل بعض الشىء ، كمن كان فى سبات ثم لكزه احد ، فأيقظه فجأة !

وأخيرا بلغت الوليمة ختامها . وكانت الوان الطعام الكثيرة موضوعة كلها على المـائدة فى وقت واحد . وانتقل الجميع على الأثر إلى حجرة فسيحة صفت فيها المقاعد والأرائك حول الجدران ، فجلسوا من تلقـاء أنفسهم فى فريقين ، كل جنس فى ناحية ، وقدمت القهوة التركية الفواحة بما خالطها من بذور « الحبهان » فى فناجين صغيرة ، ووضعت النرجيلات إلى جوار من يدخنهـا من الرجال ، فجعل ماؤها يرسل فقاقيعـه فى نرقرة لطيفة ، ودارت الأحاديث هينة لينة تتخللها عواصف من القهقهة كلما ألقى أحدهم طرفه أو نكتة مستملحة .

ولكن بعد فترة وجيزة كثرت فترات الصمت فى تلك الجلسة الساهرة ، لأن وجوم الشاب الذى اجتمعوا لتكريمه والاحتفال بسلامة عودته ، وانصرافه عن سمرهم ومرحهم ، جعـلاهم يشعرون بعدم الارتياح !

وكان هؤلاء الرجال لا هم لهم إلا التباحث فى موضوع واحد يعنيهم جميعا فى الوقت الحاضر ، الا وهو الموقف الحربى ، واحتمالات تخليص القوة المصرية المحصورة فى الفالوجا منذ اقتحم الإسرائيليون تلك المنطقة ، وما حدث للجيش السورى ، وما كان ينبغى عمله فيما مضى ، وما ينبغى عمله الآن ، وعلى من يقع اللوم ، وما المنتظر حدوثه بعد ذلك .

— ٩ —

كان الحديث فى جملته هو الحديث المألوف كلما اجتمع فلسطينيان أو ثلاثة معا .. وكانت المناقشات تدور من غير أن يصل المتناقشون إلى نتائج ، لسبب بسيط جدا وهو أن لا أحد منهم يدرى شيئا على وجه التحقيق عن تلك الأمور جميعا . وإنما المسالة كلها لون من الوان التنفيس يحدث راحة فى النفس المكروبة بما يلقى من ظلال اللوم على هذا الفريق أو ذاك . فمن قائل لو فعل العراقيون كذا ، وقائل لو فعل الفيلق العربى كذا ، وقائل لو فعل فاروق كذا .. وعلى هذا النحو مضى مؤتمر هؤلاء الجالسين فى المقاعد الوثيرة يدخنون النرجيلة يضع الخطط العسكرية التى لا تعرف الفشل !

وكانوا بين الحين والحين ينظرون إلى نصرى — وهو أحدثهم سنا ، فيما عدا انطون — وقد جرب بطريق مباشر الاحتكاك بالعدو ، ثم هو على وشك المضى للاشتراك فى مقاتلتهم — (إذا احتاج الأمر مستقبلا لقتال ، أو سمحت بذلك ظروف السياسة الدولية) — ويتوقعون منه أن يدلى برأيه ويشترك فى المناقشة . ولكنه كان لا يدلى بشىء لأنه لا يجد لديه ما يقوله ، فيثقل عليهم صمته .. وإذا ما نظروا إليه ينتظرون الإلهام والحماسة ، ألفوه صورة مجسمة للتخاذل وضعف الهمة !

وجاءتهم « رندا » بصينية مثقلة بأكواب صغيرة بها شاى

بلا لبن ، وانتهز نصرى فرصة انشغال الحاضرين بهذا الشراب وتوزيعه عليهم ففر من الحجرة . وقالت نادية للقلائل الذين فطنوا لمغادرته الجماعة — ممن كانوا عن كثب منه — أن حالته العصبية سيئة للغاية بسبب ما عاناه فى المعتقل . وابدى كل واحد منهم عطفه عليه ومشاركته الوجدانية له ، ثم استأنف الجميع ما كانوا بصدده من المناقشات . بدأت النساء الكلام . ثم تبعهن الرجال ، وكأنما أوحى إليهم الرثاء لحال نصرى أن يتباحثوا فى موضوع تلك الهدنة التى يعبث الإسرائيليون بها غاية العبث ، وتطرقوا بعد ذلك إلى الحديث عن الموقف بصفة عامة .

أما بالنسبة لنادية فان قلقها على حالة زوجها ، فضلا عما تفيض به جوانحها من التوتر الذى أوجده لديها مسلكه — بالإضافة إلى حالتها الأصلية — كل ذلك جعل المساء يبدو إليها وكأنه لا يؤذن بانتهاء .

وانتهزت حماتها الفرصة فتشبثت بها وراحت تصب عليها إلحاحها أن تثنى نصرى عما اعتزمه من الانخراط فى سلك الفيلق العربى ، فهو بحاجة ماسة إلى الراحة واسترداد عافيته المنهكة .

وردت عليها نادية بأن نصرى سيصنع ما يريد ، وأنه كان دائما مطلق التصرف فى أمور نفسه ، لا يصغى لتوجيهات أحد . ثم استأذنت فى القيام تطمئن على الطفلين زاعمة انهما يستيقظان عادة فى نحو هذا الوقت من الليل .

وذهبت بالفعل إلى حجرة الطفلين وألقت عليهمـــا نظرة سريعة فوجدتهما يغطان فى نومهما كما توقعت ، ثم ذهبت إلى حجرة نومها وقلبهـــا يدق دقا متلاحقا خوفا من أن لا تجـد نصرى هنـــاك ، وهى فى الوقت نفســـه تخشى أن تجـده هنـــاك !.. وفتحت البـــاب فى خوف ، وفى ضوء المصباح الخافت المظلل بغلالة حمراء بجوار الفراش ، استطاعت أن تتبين هيئة نصرى مستلقيا بكامل ملابسه على السرير ، وقد عقد يديه تحت رأسه ، وفى الحجرة رائحة سجائر نفاذة ..

فقالت له بعصبية :

ــ لقد تساءلت أين أنت ، وحسبتك أويت إلى فراشك .

فقال لهـــا :

ــ كان لابد لى أن انفرد بنفسى . لقد عجزت عن تحمل البقـــاء بينهم أكثر من هـــذا ..

ــ ولكنهم جاءوا جميعـــا ليروك ، وفيهم والداك وسائر الأقـــارب !؟

فأجابهـــا وهو راقـــد :

ــ أعلم هذا . ولكنى لست مستعدا لمقابلة الناس الآن . وذهنى مثقل بالأفكار كمـــا تعلمين .

توقفت تنظر إليه مترددة ، وبعد برهة قالت :

ــ لقـــد اتفقت على موعد نذهب فيـــه غدا فى الساعة العاشرة معا إلى الطبيب . انه صديقك القديم « هريد » (١) ،

---

(١) هكذا كتبتـــه المؤلفة (Harid) ، ولعله تحريف « هريدى » .

وقد سره أن يعلم نبأ عودتك إلينـــا ، وهو يبعث اليك بأطيب تمنياته .

ولم يعلق نصرى على كلامها ، فأردفت :

ــ وهو يرغب فى إبقائى بعيادته أربعا وعشرين ساعة .

وعندئذ سألها :

ــ هل ينوى أن يقوم بإجراء الجراحة غـــدا ؟

فأجابتـــه :

ــ نعم . إذا طلبت إليه ذلك .

فقـــال بمرارة :

ــ سأطلب ذلك إليه . فليس لى فى الأمر خيـــار . أليس كذلك ؟

فقالت له بصوت غير ثابت كل الثبات :

ــ لا خيـــار لكلينـــا فيـــه ..

وشعرت بأنهـــا لو استطاعت أن تلقى بنفسها إلى جواره وتطلق لنحيبها العنان فسوف يخف كل ما تعانيـــه من توتر أعصابها ، بيد أن نبرة صوته أشعرتها بأنه لن يطيق منها هذا .

وتحولت مبتعدة عن الفراش قائلة :

ــ لا بد لى أن أمضى لتحية كل هؤلاء الناس تحية المساء ، وسأبدى لهم عذرك ، وسوف يدركون ويقدرون . أما والداك فستراهما فى الصباح ، لأنهما سيقضيان هذه الليلة هنا .

وعادت إلى القاعة التى بها المحتفلون . وعندما لحقت به بعد ذلك الفتـــه قد خلع ملابسه واندس فى الفراش وأطفـــا

النور . ولم يكلمها حين دخلت الحجرة ، فسألته بصوت خافت :

— هل نمت ؟

فأجابها على الفور :

— لا . أكنت تتوقعين أن تجديني نائما ؟

فقالت له :

— لا . لا . طبعا لا .

وأرادت أن تطلب إليه ايقاد المصباح ، ولكنها خافت أن تقول له هذا ، فخلعت ثيابها فى الظلام ، وارتدت قميص النوم ، ومشطت شعرها على عجل ، ثم رقدت بجواره .

ولم يتحرك . كان مستلقيا على ظهره فلم يحول إليها رأسه . وبعد بضع لحظات مدت يدها ولمست خده بلطف ، وتوسلت إليه :

— نصرى . كيف يمكن أن يشوب ما بيننا شىء وكل منا يحب الآخر ؟

فأمسك بيدها وأبقاها فى يده .. ثم قال :

— لأننا بشر .

فقالت له :

— إن احساسى من نحوك لم يتغير منذ يوم زواجنا . ولم تهف نفسى إلى أحد سواك ، ولو للحظة واحدة . صدقنى ، أرجوك !



وشعرت بانها لو استطاعت أن تلقى بنفسها الى جواره وتطلق لنحيبها العنان فسوف يخف كل ما تعانيه من توتر أعصابها

فأجابهـا :

ـ انى أصدقك . ولكنى على الدوام أرى .. اوه . أنت تعرفين ما الذى اراه . وليس فى وسـعى أن أخرج هـذا الذى أراه من ذهنى . لا أستطيع أن أفكر فى الحب بعد الآن. كل ما أستطيع الآن التفـكير فيـه هـو المضى من هنـا .. للقتـال .. لأقتل كل من أستطيع أن أقتله !

وتقلصت راحة يده على يدها بعنف ، وكانت حرية ان تصرخ من فرط الألم . ولكنها لم تصرخ . وألح عليها قائلا :

ـ حاولى أن تفهمى .

فقالت له :

ـ انى أحاول حقـا ..

ثم اردفت بضعف :

ـ أنت تؤلمنى .

فخفف قبضته قائلا :

ـ آسف .

وانقلب على جنبه فصار وجهه إليها ، وقال :

ـ أفلا نحـاول أن ننـام ؟

فقالت له :

ـ ألا تريد حتى أن تقبلنى ؟

فقبلها فوق جبينها ، فقالت :

ـ هـذه لا تحسب !

فأجابهـا :

ـ أعرف هذا . ولذا لم أفكر فى الإقدام عليها ..

فسألته بحزن :

ـ أهى أفضل ما تستطيعه ؟

فقـال لهـا :

ـ فى الوقت الحاضر : نعم .

فسألته :

ـ وهل تظن الحال سيكون أفضل من هذا فيما بعد ..؟

فأجابهـا :

ـ أرجو هذا . أؤكد لك أنى أتمنى هـذا !

وجذبها إلى جانبه والتصق بها ، ودفن وجهه فى كتفهـا وبكى ..

* * *

وبعد أن هـذا نشيجه ، قال لها وهو يضمها إليه :

ـ لم أكن أدرى قبل وقوعى فى يد اليهود أن فى استطاعة المرء تعذيب النـاس من غير أن يلمسهم بأصابعه . انهم لم يضربوا أحدا منا ، ولم ينتزعوا أظفارنا . لقد سمعنا حكايات كثيرة من هذا القبيل فزعنا ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث لنـا شخصيا ، أعنى لأحد ممن كانوا معى فى حجرة واحدة على الأقـل ، وكان عددنا نحو عشرين . وكان المبنى الذى اعتقلونا فيه كبيرا ، فظننا فى البداية أنها مدرسة ، ولكننـا لم نستطع أن نجزم بشىء ، لأنه لم تكن لدينا فى الواقع أدنى فكرة عن مكان وجودنا ، فعندما ذهبوا بنا الى ذلك المبنى لم

نجـد ما يدل إطلاقا على الغرض الأصلى من تشييده ، وكل ما لاحظناه أن به فنـاء واسـعا يحيط به سـور مرتفع من الحجارة ، مما قـد يصلح ملعبا لمدرسة . والحجرة نفسـها كانت خالية من كل أنواع الأثاث ، فيما عدا دلوا موضوعا فى كل ركن من أركانها الأربعة ، ليس له غطاء . وقـد تم نقلنا إلى ذلك المبنى فى سيارة نقل مقفلة من النوع الذى يستخدم فى نقل الأغنام !.. وكل ما هنـاك أنهم ما كانوا ليكدسوا فى السيارة كل هذا العدد من الغنم ، لأنها كانت حرية ألا تصل وهى على قيد الحياة !.. وظلت السيارة تدرج بنـا عدة ساعات ، وأنت تعرفين كم كانت الحـرارة شديدة فى ذلك الحين ، فاشتدت علينا وطأة العطش. وبمرور الوقت اشتدت حاجتنا أيضا إلى قضاء ضروراتنا العضـوية . وقـد توقفت سيارة النقل عن المسير عدة مرات ولكن لم يسمح لأى فـرد منا بمغادرتهـا . وكان بجوار السائق فى المقـدمة جنديان آخران منهم ، ولكن ما من أحـد من الثلاثة ـ اى الجنديين والجندى السائق ـ يعرف العربية . ولكن أحدهم كان يعرف الإنجليزية فلجأنا إلى مخاطبته بها ، وأخبرناه أن فريقا منـا توشك مثاناتهم أن تنفجر ، وطلبنا إليه أن يسمحوا لنا بالنزول قليلا لهذا الغرض القهرى ، فضحك وأوصانا ألا نضيع هذا البول كله سدى ، لأن فى وسعنا أن نتجرعه إذا الح علينـا الظمأ !

فسألته نادية عندئذ :

ـ وهل تكرر هـذا أيضا فى طريق العودة ؟

فأجاب نصرى :

ـ لا . فالرحلة لم تكن بمثـل ذلك الطول . فنقلونا إلى أحد مراكز المراقبة ثم تولى الحراس الإسرائيليون حراسـتنا حتى الجانب الأردنى من الحدود . أما فى ذلك المبنى ـ كائنا ما كانت حقيقته ـ فقد كان الحراس الإسرائيليون يشعرون بالسأم الشديد ، مثلنا تماما ، لأنهم لا يجدون ما يصنعونه . ولذا كانوا يتلهون بنا ، فما نحن إلا شرذمة من العرب ، أى من الحثـالة ، ولسنا بشرا !.. ففى جوف الليل كنا نسمع صرخات يجمد الدم من هولهـا ، فينصرف تفكيرنا على الفور إلى كل تلك الأقاصيص التى سمعناها تتردد من قبل عن انتزاع الأظفار . ثم يقوم أحـد الحراس الليليين بفتح باب حجرتنا ويقف به باسما ليقول : « من الذى عليـه الدور ؟ » ، ثم يتلو بضعة أسماء . ثم يأخذ من تكون أسماؤهم من فريقنا إلى الممر الخارجى ، حيث يقوم زملاؤه المنتظرون هناك ببنادقهم بربط أيدينا وراء ظهورنا ، ثم نساق فنهبط السلالم إلى الفنـاء الكبير ، وهناك يوقفوننا ووجوهنا إلى الجدار . وعندئذ يقول أحد أولئك الحراس : « إن كان منكم أحد يريد أن يتلو صلاته الأخيرة فليسرع بأدائها » ، أو يقول شيئا من هـذا القبيل . ويشرع الجميع ـ مسلمين ومسيحيين معـا ـ فى تـلاوة الصلوات .. فسألته نادية :

ـ وأنت ! هل كنت تتلو صلاتك أيضا ؟

فأجابهـا :

ـ بل كنت أصـلى ولكن فى قلبى . أما لسـانى فلم يكن ليتحرك .

فسألتـه :

ـ وماذا كنت تقول فى صلاتك ؟ هل كنت تذكرنى فيها ؟

فأجابها ، جادا :

ـ كنت أطلب من الله أن يعيش ابنى حتى ينتقم لأبيه .

وكانوا يتركوننا فى هذه الحالة ساعتين، والحراس يسيرون بلا انقطاع من وراء ظهورنا انتظارا لفرقة إطلاق النار التى لم تصل مطلقا ، وانتظار الموت لم يحدث فعلا ـ وإن حدث معنويا فى كل دقيقة بل كل ثانية من ذلك الوقت الطويل الرهيب ! ـ وفى النهاية يعيدوننا إلى حجرتنا .. وبعد بضع ليال أخرى يأخذون مجموعة أخرى من حجرة مجاورة . وننظر نحن من النوافذ والغثيان والجزع مستوليان علينا . ونحن نتساءل واجفين هل سيفعلونها حقا فى هذه المرة أم هو اللهو الماجن . وكنا ندرك أن المساكين المصطفين من تحتنا فى الفناء يعتقدون أن ساعتهم الأخيرة قد دنت ، مثلما كنا نحن نعتقد ذلك فى حينه .. كلا ! إنهم لم يلمسونا كما قلت لك ، ولكنهم فقط كانوا يعذبوننا بالارهاب والرعب والاذلال .. وكانوا أيضا يجيعوننا .

فسألته نادية :

ـ وماذا كانوا يقدمون لكم لتأكلوا ؟

فأجابها :

ـ خبزا أسود وشيئا سائلا كالماء القذر يسمونه حساء .

ولست أعتقد أنهم كانوا يبدون لنا كراهية . حتى هذا

كانوا لا يعتبروننا أهلا له . فهم المنتصرون .. وكل ما هناك أنهم يحتقروننا ويزدروننا !

وظل نصرى راقدا بجوار زوجته ملتصقا بها ، متشبث بأعطافها بين ذراعيه ، وهو يحدق فى الظلام ..

ورفت شفتاها على جبينه المبلل بالعرق . وناشدته بحنان قائلة :

ـ حاول أن تنام ..

فقال لها :

ـ لا أستطيع . فانى متى أغمضت عينى خيل إلى أنى عدت إلى تلك الحجرة اللعينة ، وأنى بعد لحظة واحدة سأسمع صرخة ، ثم وقع خطوات عسكرية ثقيلة فى الممر الخارجى ، ويفتح باب الحجرة ليبرز جندى إسرائيلى يبتسم ابتسامة عريضة ويقول : « من الذين عليهم الدور الآن ؟ » .. ثم يتلو أسماء من قائمة بيده ، واسمى من بين هذه الأسماء ..!

فقالت له :

ـ أنت الآن فى أمان . لقد انتهى كل هذا الآن . أنت هنا فى (رام الله) ، فى بيت خليل ، وقد صرنا معا مرة أخرى !

فاشتدت قبضة ذراعيه تعصرانها بكل ما فيه من توتر عصبى ، حتى أنها لم تكد تطيق هذا الضغط الذى لا يدرى به ، وقال :

ـ إنه شىء أشبه بالكابوس . وأنا أقاومه ولكنى لا أستطيع أن أتحرر منه ، فهو يلازمنى باستمرار

تهدأت من روعه قائلة :

ـ سيذهب هذا كله عنك . غــدا سأسأل الطبيب أن يكتب لك حبوبا منومة . ومتى نعمت ببضع ليــال من النوم العميق شعرت بتحسن كبير .. تأكد أن هــذا كله سيذهب عنك .

وقالت فى نفسها بمرارة :

ـ ما الذى فعلناه كلانا فى أى يوم من الأيام بأى يهودى حتى ينزلوا بنا كل هذا العذاب ؟ بل ما الذى فعله أى عربى فى أى يوم من الأيام حتى يفعلوا بنا جميعا كل هــذا الشر والبلاء المقيم ؟

ـ ١٠ ـ

قضى بطرس وماريان طيلة ذلك الصيف المحرق فى أريحا ، ولم يحظيا باستقبال زوار فيما عدا بضع زيارات رسمية قام بها الأعيان المحليون فى الأيام القلائل الأولى بعــد وصولهما للترحيب بعودة بطرس إلى دار الســلام ولابــداء أسفــهم ومواساتهم له على ما ضاع من أمواله وأراضــيه وداره فى (اللــد) .

والحقيقه أن الزوجين لم ينعمــا على الاطلاق بأى نوع من الحياة الاجتماعية ، إلى أن بدأ العــام الدراسى فذهب أنطون إلى مدرسة الأمريكان فى (رام الله) ابتداء من أواخر سبتمبر ، وبعدئذ صارا يريان «فريد» كل بضعة أسابيع عندما يأتى معه بالغلام لقضاء عطلة الأسبوع مستقلين سيارة خليل .

وكان البنزين قد بدأ يوزع بالبطاقات بطبيعة الحال ، فكان من المستحيل على فريد وأنطون القيام بهــذه الرحلة ما بين رام الله وأريحا فى فترات أقرب من ذلك . وكانا كلما قــدما إلى أريحا يرحلان عنهــا عائدين إلى رام الله فى صباح الاثنين عند شروق الشمس أو بعده بوقت وجيز جدا .

وفى فترة عطلة عيد الميلاد جاء فريد ومعــه ماجدة ونادية والطفلان فبقوا جميعــا إلى أن حان موعد أوبة أنطون إلى مدرسته فى آخر يناير .

وكانت نادية تفتقد نصرى كثيرا ، وكان قد رحل الى عمــان ليتلقى تدريبا عسكريا فى صــفوف الفيلق العربى ، ولكنهــا

كانت تشعر بالسعادة فى دخيلة نفسها لأنها استطاعت أن تنسى ذلك الحادث الفظيع الذى وقع لها فى اللد ، بعد أن أصبحت حبلى مرة أخرى ، ولكن من نصرى فى هذه المرة .

لقد حدث ما لم يكن يعتقد نصرى أنه سيحدث . فما أن تمت لها جراحة الاجهاض وبرئت منها بفضل شبابها القوى بسرعة ، حتى وجد نفسه وقد تخلص من الصدمة التى خالها ستحول بينه وبين زوجته الحسناء إلى الأبد . وقبل أن يدرك ما حدث ألفى نفسه قد استعاد علاقته الحميمة بين أحضانها . وأعقب ذلك التحطيم المادى لآثار الصدمة تخلصه تدريجا من آثارها المعنوية ، وتغير حاله من الشرود شبه المرضى إلى الإقبال السوى على الحياة ومتاعها المبذول له كسابق عهده .

وقبل رحيله إلى عمان بيوم واحد أقيمت له حفلة أخرى . ولكن ما أبعد الفرق بينها وبين حفلة استقباله الأولى . فقد أجمع الكل على أن هذه الحفلة الثانية كانت أشبه فى جوها المرح البهيج بحفلات الأعراس .

وعن هذه الحفلة أيضا تخلف آل منصور لأن بطرس كان متوعكا . إلا أن فريد الذى تولى توصيل نصرى بالسيارة إلى عمان فى صباح اليوم التالى حرص أثناء الرحلة على أن يمر على أريحا ليحظى الشاب الذاهب للقتال بدعوات وبركات عم زوجته ورأس أسرتها .

ولم يكن نصرى قد رأى بطرس منذ أربعة أشهر . فصدم بمنظره . وخيل إلى نصرى أن الرجل بدت عليه الشيخوخة والعلة فجأة ، كأنما يد الموت قد شرعت تلمسه بالفعل . وكانت

صحة بطرس قد تدهورت كثيرا فى الواقع منذ المسيرة المشئومة من اللد إلى رام الله . وساءت حالة قلبه الذى كان يعانى منه منذ سنوات ، وأخذ يشكو مر الشكوى من نقرس فى الفخذ ، حتى أن أهون الحركات التى كان يضطر إلى القيام بها كانت تؤلمه ولا يقدر عليها إلا وهو يظلع ظلعا شديدا .

ولم تكن آلامه الجسدية كل ما ينوء به بطرس، فحزنه وأساه ويأسه ومرارته لم تكن أخف وطأة عليه من أمراضه ، فتمخض اجتماع علة البدن وعلة النفس عن تحطيم ما بقى سليما من قلبه . كان قد اعتزل الدنيا فى هذا المكان متحملا حرارته القائظة أملا فى الا يجد ما يذكره بداره وأراضيه وثروته التى تركها فى (اللد) بين يدى معتدين غاشمين يسمون أنفسهم بالإسرائيليين ، بيد أنه ظل يفكر فى ذلك كله كل يوم . بل لا تكاد ساعة من ساعات اليوم تخلو من استغراقه فى ذلك التفكير ، فالتهم هذا الهم روحه كما يلتهم السرطان خلايا البدن.

لم تكن فى راسه فكرة سوى أن فلسطين لن تتحرر وهو على قيد الحياة .. فان كتب لأنطون أن يعيش ليشهد يوم ذلك التحرير ــ الذى قد لا يحين إلا بعد خمسين سنة ــ فسيكون أنطون يومئذ فى مثل سن أبيه الآن . وفى ذلك الوقت ستكون الدولة الإسرائيلية التى فرضت عنوة وغدرا على قلب الوطن العربى قد آذنت بالزوال بفعل تيار التاريخ الطبيعى . لأن الظلم لا بد فى النهاية أن تدول دولته كى يسود الحق والعدل .

بهذا كان يؤمن بطرس فعلا ، ولكنه لم يكن يأمل أن تأتى نهاية تلك الشرذمة الظالمة فى يوم قريب جدا ، وبصورة درامية خارقة ، على يد جيش للتحرير .. وأن الدول ستفرض على الطرفين هدنة فى الوقت الحاضر . هدنة ترسم فيها حدود جبرية تحكمية . وسينتهز اليهود هذه الفرصة المواتية لهم كى يعززوا مكاسبهم ويحولوا ما أحرزوه من نجاح خاطف غادر إلى نصر موطد الأركان .

* * *

وبمجرد أن بدأ البرد يشتد فى منطقة التلال أخذت جموع أخرى من اللاجئين تتدفق من رام الله عبر الوادى وعلى الطريق المفضى إلى أريحا ، متوجهين إلى القاع الدافىء لبرية تلك المنطقة المنخفضة . وأقاموا فى الكهوف أو على جوانب التلال القاحلة. ومنهم من نصبوا خياما مرتجلة. وكان عددهم بضعة آلاف ما بين رجال ونساء وأطفال قادمين من اللد ومن الرملة ومن القرى والكفور المنتشرة فى تلك البقعة من الريف . وكلهم مهلهلو الثياب مشردون معدمون جياع . وما هم فى الواقع إلا جانب يسير ــ على ضخامتهم ــ من ذلك « الخروج » الفلسطينى الواسع الفاجع الذى يعتمد فى إقامة أوده وستر عريه على معونة غير مستقرة التنظيم كل هدفها أن تكفل لهؤلاء مجرد البقاء على قيد الحياة ولو فيما هو أدنى من المستوى المفروض لمعيشة البشر !

ومن شرفة الطابق الأول فى دار منصور بأريحا يستطيع الناظر أن يرى فيما وراء جبل التجربة عند سفوح التلال

مدينة كاملة من الخيام الممزقة والأكشاك الخشبية والأخصاص هى النواة الأساسية لما كان مزمعا أن يغدو أكبر معسكر للاجئين فى الأردن .

وكان بطرس وماريان يجلسان معا فى تلك الشرفة وينظران إليها من خلال أشجار السرو الطويلة فى حديقتهما : ولكنهما فى كثير من الأحيان كانا يحدقان فلا يريان شيئا لأن نظرتهما تكون قد امتدت إلى بعيد فيتراءى لهما بيتهما فى اللد والممر الكبير فى الحديقة وعلى جانبيه أشجار الجزوريتا وأشجار النخيل الباسقة . وفى ذلك الإطار تتمثل أمام ناظر بطرس سحنة تلك المرأة الإسرائيلية المجندة التى بصقت عليه وأنذرته بأنه ما لم يسرع بالرحيل فلن تساوى حياته فلسا واحدا !

وكانت ماريان حين تنظر إلى وجهه تقرأ ما يدور فى ذهنه فى تلك اللحظات ، وتدرك أنه لا يتألم لفقدان داره وأراضيه ونقوده وممتلكاته المادية فحسب ، بل إنه فوق آلامه الجسدية المضنية التى حاقت به نتيجة لتلك الهجرة الشاقة يشعر بألم أقسى وأدهى لما أصاب كبرياءه من جرح ، ولما يشهده من اذلال جماعى للشعب الفلسطينى بأسره . فحياتهم جميعا ــ وعددهم يقدر بمئات الألوف ــ لم تعد تساوى فلسا واحدا .

وفى أول ديسمبر قررت حكومة الأردن ضم الضفة الغربية لنهر الأردن إلى أراضيها . وكانت هذه الضفة هى كل ما تبقى من فلسطين العربية فيما عدا قطاع غزة . وهكذا انتهى وجود شرق الأردن كما انتهى وجود فلسطين فى العرف الدولى ،



وكان بطـرس وماريان يجلسـان معـا فى تلك الشرفـة وينظران اليها من خـلال أشجار السرو

وحلت المملكة الأردنية الهاشمية الجديدة محـل دولة شرق الأردن على تخوم فلسطين السـليبة . وهـكذا تلاشى آخر ملاذ لحـلم الوطنيين الفلسطينيين فى بقـاء شخصية وطنهم المستقلة تلاشيا تاما فى هـذا الجانب . ولم يبق لذلك الحلم العزيز من موئل إلا البقعـة الصغيرة فى الجنوب حيث تحمى القوات المصرية غزة .

وفكرت ماريان فى أبيها . ولم تكن بحاجة إلى خطاباته التى ينتقى ألفاظها بحيطة وحذر ومداراة كى تعرف ما يجول بخاطره وما يعتمل فى مشاعره .

وكان قد كتب إليها يقول :

ــ لمـاذا لا تأتيان كلاكما إلى إنجلتـرا ومعكما أنطـون ؟ إن فى الوسع ادخال أنطون إحدى المدارس الجيـدة هنـا فى إنجلترا .

وقـد أدركت المعنى الذى يرمى إليه بهـذه العبارات . وأحست أن ما يعرضه لا يمكن قبوله ، لمـا فيـه من معنى التخلى عن الوطن الفلسطينى نهائيا .

وكتبت إليه تقول :

ــ بطرس لن يغادر أريحا إلا كى يعـود إلى (اللـد) . وذلك يعنى بطبيعة الحال أنه لن يغادر أريحـا !

ثم حل بعد ذلك عيد الميلاد، وأعلن بطرس أنه ينوى حضور صلاة قداس العيد فى كنيسة الروم الأرثوذكس بأريحـا لأنه لا يحد فى نفسه ميلا للتوجه فى هـذه المناسبة إلى القدس .

وذهب انطون معه إلى تلك الكنيسة بطبيعة الحال . وكذلك ذهبت ماريان لأنها تريد فى ذلك اليوم أن تلازمهما .

كان يوما دافئا مشمسا برزت فيه صفحة السماء بهية المزرقة خالية من الغيوم ، وكانت الأزهار اليانعة تبرز فى كل مكان مطلة فى تزاحم حافل بالألوان والعبير فوق الأسوار القديمة والعريشات المخرمة ، ما بين خمرية اللون ، وقرمزية وحمراء قانية ، وبيضاء ، وذهبية . فكأن الدنيا فى عرس أخذت له الطبيعة زخرفها وازينت .

وشعرت ماريان وهى تدخل البلدة الصغيرة بما كانت تشعر به دائما من فتنة هذا الإقليم ذى المياه الراكدة . إلا أن ما كانت تتسم به البلدة من الهدوء الذى يشبه التهويم للكرى قد انجاب عنها ، فاذا الشارع الرئيسى الآن ــ بأشجاره الصغيرة الملتوية المعروقة ــ قد غص بأناس غرباء يجوبونه على غير هدى . والنساء منهم مكتسيات بالأثواب المطرزة المعهودة فى القرى الفلسطينية . أما الرجال فعليهم سترات أوربية رثة فوق جلابيب بيضاء أو مخططة تتهرول على أعقابهم . والرجال والنساء على السواء يسحب كل منهم وراءه سربا من الأطفال الصغار ، فى تجوالهم الذى لا يقر له قرار . فكل مرادهم إزجاء الوقت : وقت اللاجئين الذى لا نهاية له لأنه لا مشغلة لهم ، وبطونهم خاوية من الجوع . ولكن قلوبهم أجوع من بطونهم واشد منها افتقارا إلى ما يبعث فيها الحرارة والدفء .

وتطلعت ماريان إلى محيا زوجها المتجهم وهم فى السيارة ــ هى وبطرس وأنطون ــ وكان يوسف يتولى القيادة ، وهى

على يقين من أن ما يجول بخاطر بطرس مطابق لما يدور فى ذهنها : فهاهم الناس الذين عانينا معهم مشاق تلك المسيرة الوحشية . وكل ما هنالك أننا أسعد منهم حظا ؛ لأنه كان لنا مكان معد لاستقبالنا اتجهنا إليه . كان لنا بيت آخر ، أما هم .. فلم تكن أمامهم إلا البرية !

وأحست أن الغضب والشفقة والألم تموج فى خليط مضطرم داخل صدر زوجها . وكذلك كان حالها أيضا . ولكن إحساسه هو كان أشد ضراوة ، بما فى نفسه من نخوة الرجولة وبواعث الوطنية الجريحة .

وبعد ذلك شملتهما الكنيسة الصغيرة الرطبة الأنفاس ، التى تملأ العتمة جنباتها ويفعم الأنف عبير بخورها ، ومن فوق رؤوسهم شمعدان ضخم به سبع شموع تضىء كأنها النجوم الدرارى فى تلك الظلمة ، رمزا للنور الذى أفاضه على الدنيا مولد المسيح بما جاء به من هداية الروح ورسالة الحب والسلام ونقاء الضمير .

ولم يقدر بطرس فى الجانب الأكبر من وقت الصلاة على تلك الوقفات الطويلة ، فجلس منتصب القامة إلى الأمام فى مقعده ويداه متشبثتان بمقبض عصاه . وبين الحين والحين يشير بيده راسما على صدره علامة الصليب ، مؤديا بذلك الحد الأدنى من شعائر الصلاة ، بيد أنه كان يتابع الطقوس التى يؤديها الكاهن بأقصى ما يمكن من الانتباه والاهتمام .

إنه لم يكن من غلاة المؤمنين الأتقياء بطبيعة الحال ، ولكن الذهاب إلى الكنيسة فى يوم عيد الميلاد أمر يقدم عليه المرء بحكم تربيته وتعوده ، مثلما يعطى الصدقات للفقراء ، أو مثلما يصيح بخدمه آمرا أو ناهيا ، أو مثلما يقدم لضيوفه ونداماه شراب « العرق » وطعام « التبولة » !.. فبطرس ــ فى الجانب الأكبر من السنة ــ ضعيف الإيمان ، حتى إذا حل عيد الميلاد ، ومن بعده عيد الفصح ، جنح من عدم التصديق إلى التصديق ، بحكم الرواسب التى فى نفسه من ميراث الجدود وتربية الأبوين ، فيدخل عندئذ الكنيسة ، غير متخل عن سمته واعتداده كأنه فى داره ، ولكنه يظل حاضر الذهن فى ضرب من الركوع المعنوى المجامل .

وكانت ماريان قد سألته ذات مرة فى فجر زواجهما :

ــ لماذا إذن تذهب إلى الكنيسة ما دمت لا تؤمن ايمانا عميقا ؟

فأفتر فمه عن ابتسامته الأسيفة ، وقال لها :

ــ لأننى فى هذين الأوانين من العام لا أكون واثقا تماما الثقة من مدى عدم إيمانى !

أما أنطون فلم تكن فى نفسه أدنى ريبة ، وإيمانه عميق . فوقف بجواره وراح يتابع كل ما يجرى عند المذبح ، بتركيز ذهنى نشوان . وامتلأت نفسه خشوعا وخشية لتلك الطقوس المقدسة التى يجرى أمام عينيه تمثيلها . وعندما حان وقت رفع القربان المقدس أمام أنظار الناس أحنى رأسه فى صلاته

العميقة وهو موقن من أن هذه اللحظة بالذات هى اللحظة التى تكون فيها الصلوات أقدر على الصعود إلى ساحة الله واستجلاب رضاه .

وكان من عادته دائما أن يصلى طالبا من الله أن يعينه كى يحيا حياة صالحة ، وأن يحمى أبويه من كل شر مادى ومعنوى . ولكنه فى هذا العيد ــ وهو أول عيد للميلاد فى فترة التشتت الفلسطينى ــ رفع إلى الله صلاته كلها من أجل شعب أبيه ، لأنه شعر بعد تلك التجربة الوحشية فى التيه أنه قد صار هو وذلك الشعب شيئا واحدا فى الحال والمصير .

تضرع أنطون فى صلاته الحارة إلى الله أن تشاء مراحمه التى لا نهاية لها عودة شعب فلسطين المشتت إلى وطنه السليب ، لأنه لا يليق بعدل الله ورحمته إلا أن ينتصر الخير على الشر ، وأن يسود الحق والعدل كما وعد المؤمنين .



- ١١ -

كان أهم ما يشغل ذهن أنطون هو الضراعة إلى الله أن يمنحه صديقا يشغل الفراغ الذى تركه « أمين » . ولم يكن إعزازه للصبى الأعمى قد تغير ، ولكنه لم يعد ملازما له .. ولم تتحسن الحال عندما قام بزيارته فى مدرسة العميان ببيت لحم . وكان يحلم بقضاء أمين العطلة معه فى أريحا ، ولكن والدة أمين أصرت على التئام شمل الأسرة فى تلك العطلة . ثم إن قضاء العطلة مع أمين ما كان ليشفى غليله لأنه يشعر بالحاجة الماسة إلى صديق يملأ حياته كل يوم ، فى المدرسة وفى خارج المدرسة .

إنه لا ينكر ميله إلى بعض زملائه فى مدرسته الجديدة . ولكنه ميل لا يصل إلى درجة الجاذبية القوية والألفة الحميمة. فما من واحد منهم يمكن أن يقول عنه فى اعتداد وثقة « هذا صديقى » .

وكأنما استجابت السماء لدعائه الصامت فالتقى بعد عودته إلى المدرسة أثر عيد الميلاد بزميل يدعى « وليد حسين » ، طويل القامة ، أسمر اللون ، جميل القسمات ، ولكن لا يبدو عليه أنه يشعر بجماله . وهو أكبر سنا من أنطون شيئا ما ولا يجمعهما صف واحد . وكان أول التقاء بينهما أثناء اشتراكهما فى مشاهدة مباراة لكرة القدم. وأول ما لفت نظر أنطون إلى وليد أن وليد ابتعد عن الزحام فى فترة الاستراحة (الهاف تايم) وأوغل بين أشجار السرو حيث جلس على

الأرض تحت شجرة كبيرة منها ، مما دل على شعوره بالوحدة فى هذا الحشد من الطلاب ، فاتجه أنطون إليه وبادأه الحديث حول المباراة واحتمالات الكسب . ثم تطرق الكلام إلى موضوعات شخصية :

ـ من أى بلد أنت يا وليد ؟

ـ من (بئر سبع) . كان أبى مدرسا هناك ولكننا هاجرنا منها قبل دخول اليهود إليها وانتقلنا إلى (الظهيرية) حيث أهل أبى . وهى من قرى الحدود . هل تعرفها ؟

ـ لا . فأنا من (اللد) . جئت إلى هنا مع أسرتى فى الصيف الماضى واسمى أنطون منصور .

ـ مسيحى أنت ؟

ـ نعم . وأمى إنجليزية ، ولكنها تعتبر نفسها فلسطينية.

وضحك الفتى الأسمر وقال له :

ـ وأنت ماذا تعتبر نفسك ؟

ـ عربيا بالطبع ، مثل أبى .

ـ حسبك هذا عروبة ، بالإضافة إلى مشاعر والدتك الشخصية .. أما جنسيتها الإنجليزية فأمر ثانوى .

ثم جلس أنطون بجواره وأسند ظهره مثله إلى الشجرة وقال :

ـ إن عمتى متزوجة من مسلم .

ـ وما الفرق بين المسيحى والمسلم ؟ كلنا نؤمن بإله واحد.

ـ كان أبى من كبار الملاك فى اللد . من أكبرهم فى الواقع . ولنا بيت فى اريحا وبعض بساتين برتقال . ولكننا لم نعد أغنياء كذى قبل .

وضحك وليد ، وقال :

ـ ولكنكم لستم فقراء ! أما أهلى ففقراء . فقراء جدا . وأبى يشتغل الآن بالتدريس فى (المالحة) ، وعدد أسرتنا كبير جدا وأنا أكبرهم . وعمى مدير البنك قد تبنانى لانه معجب بى . وإن كان يكره أبى ويزدريه ، لأنه أولا أذكى أعضاء الأسرة وثانيا لأنه اقلهم مالا فلا اهتمام له بشىء سوى العلم والتعليم . ولكن عمى يغيظه منى أننى لا أعرب له عن عرفانى بجميله إذ ادخلنى هذه المدرسة على حسابه . فهو فى الواقع لم يزد على ان قام بواجبه باعتباره أغنى رجل فى الأسرة ، ولأن الحظ قد خدمه فلم يصبح لاجئا مشردا . وستزداد خيبة أمله عندما يعلم أننى لا أنوى الاشتغال بالتجارة والأعمال المالية مثله بل أريد أن أكون معلما كأبى . ولكن ماذا تريد أنت أن تكون ؟

ـ لا أدرى . فعندما كنا فى اللد قبل اغتصاب أملاكنا كان المفروض أننى سأساعد أبى فى إدارة مزارعه . ولكنى لا أريد على كل حال أن أشتغل بالتجارة . وفى الوقت نفسه لا أحسبنى مستطيعا أن اشتغل بالتعليم إذ تنقصنى براعتك .

ـ ومن ذا الذى قال إنى بارع ؟

ـ هذا هو اعتقادى فيك . وقد قضيت الشهور الماضية هنا بغير صديق ، اتمنى أن تغدو انت صديقى .

ـ ولم لا ؟

ولم يهتم أنطون بزيارة وليد فى بيت عمه ـ حيث يقيم ـ ولا بدعوته لزيارته فى بيت عمه هو « داود » ، حيث أولئك الفتيات السخيفات بنات عمته . ولكنه اهتم غاية الاهتمام بدعوته إلى أريحا ، لا ليقدمه لوالديه فحسب ، بل ليجعل منه جزءا من حياته هناك على الخصوص . وهو يعتبر أريحا وطنه الحقيقى الآن كما كانت اللد من قبل .

ولم تكن لدى وليد معرفة سابقة بأريحا سوى أنه مر بها وهو فى سيارة عمه المسرعة . وقد سر بذهابه إلى هناك مع أنطون فى سيارة زوج عمته خليل وإن كان الذى تولى القيادة هو عمه فريد . وأعجب وليد بجمال بيت آل منصور هناك بين أشجار النخيل وبساتين البرتقال . ولكن اهتمامه الأكبر كان موجها إلى تسلق الجبل مع أنطون فى أقرب فرصة . وقد ترك أبوا أنطون فى نفسه تأثيرا طيبا جدا وأعجب بطلاقة لسان والدة انطون الإنجليزية وهى تتكلم العربية ، حتى لقد صارحها بأنه ما كان ليدرك أنها إنجليزية لولا أن انطون أخبره بذلك .

أما بطرس وماريان فأعجبهما تهذيبه وغفلته عن محاسن شكله وقوامه ، وسرهما أن يجد فيه أنطون صديقا مخلصا ، وإن كانت ماريان أحست أن هذه الصداقة أعز لدى انطون منها لدى وليد ، وأدركت أيضا أن وليدا أذكى من أنطون وأشد منه حيوية .. وتنبأت بأن القيادة ستكون دائما لوليد ، وأن أنطون سيقنع بدور التابع الأمين . وخشيت فى الوقت نفسه أن يسأم وليد يوما ما من ولاء صاحبه الصغير وإعجابه الذى هو من قبيل عبادة البطولة ، فيتخلص من صحبته .

ولكن أنطون لم يشعر إلا بالسعادة فى صحبة هذا الصديق الجـديد الذى زادت مكانته على مكانة أمين الأعمى . لأنه فى صحبة أمين كان ملزما بأن يجعل أمينا يرى الدنيا من خلال عينيه. أما وهو فى صحبة وليد فهو يرى الدنيا من خلال عينى ولـيـد . كل ما يستملحه وليد فهو مليح وكل ما يستقبحه فهو قبيح !

وبدأ وليد يفكر فى مشروع لعطلة عيد الفصح . ولكن هـذا المشروع يحتاج إلى استـخراج تصريحين رسمين سيتكفل بهمـا عمه مدير البنك ، على أن يذهبا أولا لقضاء أيام عند أقارب وليد فى (الخليل) ، وهم قوم فقـراء يمتلكون حانوتـا صغيرا لبيع مصنوعات الخليل الزجاجية المشهورة . وبعد الحصول على التصريحين يتوجهان إلى (الظهيرية) حيث أهل أبيه الذين يفلحون قطعة صغيرة من الأرض بأديهم . وهناك يستطيع الصبيان أن ينظرا على طول الطريق إلى بئر سبع وأن يتطلعا عبر الوادى إلى الأرض المحتلة . وقد يستطيعان التسلل إلى هناك !

– ولكن هذا التسلل خطر يا وليد . وقد يقتلنا اليهود !

– خطر ولكنه ممكن . بئر سبع بلدى ومن حقى أن أعود إليهـا !

وفى هذا الحلم قضى أنطون أيامه انتظارا لمقدم الربيع .

- ١٢ -

وفى يوم ٢٤ فبراير حـددت خطـوط الهدنة بين القوات الإسرائيلية والقوات المصرية . وفى اليوم الثـالث من أبريل وقعت الأردن فى (رودس) اتفاقا بشأن خطوط الهدنة بينهـا وبين الجيوش الإسرائيلية أيضا . ولكن خط الهدنة الأردنية الإسرائيلية قسم فى طريقه كثيرا من البلدان والقرى والأراضى الزراعية بحيث فصلت قرى كثيرة عن أراضيها ، وقسمت بيوت كثيرة فى منتصفهـا بحيث كانت الحجرات الأماميـة فى الأراضى الأردنية والحجرات الخلفية تحت سيطرة اليهود !.. وبلغ عدد القرى التى مزقت شذرا على هذا النحو ٢١١ قرية حرم سكانها من مصادر رزقهم وهى الأرض التى يفلحونها . وقد أشرف على هذه المباحثات الوسيط الأمريكى الدكتور بانش الذى كوفىء بإهداء جائزة نوبل للسلام إليه ..!

وكانت القوات الإسرائيلية قـد زحفت على (العقبـة) فى الجنوب فى أثناء هذه المباحثات فى شهر مارس ، كما تقدمت قوات إسرائيلية أخرى وتغلغلت بين مواقع الفيلق العربى فى منطقـة (الخليـل) .

وكان بطرس يصغى إلى الأنباء فى الراديو ويطالع الصحف التى تصـل إليـه ولا يكاد يعلق بشىء على ذلك كله ، لأن إحساسه بالكارثة كان تاما بعد أن تمزقت وحـدة فلسطين ، وبعد أن ضم إلى الأردن ما تبقى من وطنه الجريح . فلا أهمية

فى نظره لشىء بعد ذلك . وهيهات أن يضير الشاة سلخهـا بعـد ذبحهـا !

لهذا كان بطرس يأبى الخوض فى حديث السياسة مع أخيه فريد حين يزوره ، ويعجب لتحمس فريد واهتمامه البالغ بما يحـدث ، وإصراره على أن فلسطين سيسترد حريتـه واستقلاله ، ويجيبه باسما :

ـ لنواجه الواقع ! لقد قضى على شعبنا بالتشتت . وإن كنت أحسدك على إيمانك الذى لا يتزعزع . اشرب كأسا من الويسكى فانى أحسبه أجدى عليك من إيمانك كله !

والحق أن بطرس كان يفرط فى الشراب . وكانت ماريان تبدى قلقهـا لسوء تأثير ذلك فى صحته . وشاركها فريد ذلك القلق . وكان بطرس يرد على ذلك دائما بأن الويسكى يريحه من الهم والكآبة وهما أضر بصحته من الافراط فى الشراب ، ويؤكد أن مشروبه المفضل هو الشىء الوحيد الباقى فى حياته مما يراه جديرا بالمناقشة !

ولم يكن بطرس صادقا كل الصدق فى ذلك . لأنه حين يخلو إلى زوجته ماريان كان يناقشها فى أمور جدية كثيرة ، منهـا مستقبل ابنهمـا . ولم يكن تظاهره بعدم الاكتراث بالسياسة إلا قناعا زائفا . وهو فى الواقع كان يتجنب المناقشة ، لا لأنه غير مكترث بل لأن الموضوع يؤلمه ألما يجعـل الخوض فيـه فوق طاقته !

* * *

وكان أنطون قد حصل من والديه على إذن بقضاء بضعة أيام من عطلة الفصح بالخليل . بيد أن وليد جعـله يتعهد له بألا يبوح لوالديه بشىء عن ذهابهما بعد ذلك إلى الظهيرية ، خيفة أن يمانعا فى ذلك لقربها الشديد من خط الهدنة . وفى حالة الممانعة سيشعر أنطون بتأنيب الضمير إذا خالف والديه.

وكان وليد يضيق بسلطان الأبوين ويعتبره فضولا مرهقا . ولذا اقترح على أنطون أن يخبر أبويه بذهابهما إلى الظهيرية بعد عودتهما من هناك . وما من شىء أدل على وقوع أنطون تحت سيطرة صديقه الجديد من قبوله ذلك الوضع ، خارجا بذلك على ولائه لوالديه لأول مرة فى حياته !

والحقيقة أن وليد كان ينظر إلى الأمور نظـرة تختلف عن نظرة أنطون إليها . فهو لا يتردد فى الخديعة والكذب إذا كان ذلك كفيلا بوصوله إلى هدفه . أما أنطون فهـو على العكس من ذلك . والاختلاف بينهما ناجم عن اختلاف الطبائع والمزاج لا عن اختلاف العقيدة بطبيعـة الحـال . فالكذب فى الدينين حرام ، وعدم إطاعة الوالدين فى الدينين حرام . ولكن التكوين النفسى لا يتقين دائما بنواهى الدين وأوامره .

وكان قد تقرر أن يتولى يوسف ، خادم بطرس فى أريحا ، توصيلهما إلى الخليل فى السيارة على أن يعود لإحضارهما فى اليوم المحدد . وفى ساعة مبكرة من الصباح بدأت الرحلة بين التـلال الصخرية والرملية الجرداء إلى القدس القائمة فوق تلالها الشهيرة مشرفة على الوادى العميق . وكان وليد مشوقا إلى مشاهدة المدينة المقدسة التى لم يرها منذ أكتوبر الماضى ،

أما يوسف فكان فى حالة عصبية سيئة لخوفه من القناصة اليهود وهو يقود السيارة على طول المنطقة الحرام بما فيها من بيوت قوضتها القنابل وحدائق وغياض من أشجار الزيتون العتيقة وقد أهملت وتكاثرت فروعها على غير نظام . فكان همه كله فى الوصول إلى بر الأمان واجتياز القدس بسرعة للتوجه جنوبا إلى الخليل .

ولما صارت القدس وراء ظهورهم شرع وليد يكلم صديقه بالإنجليزية للتعمية على يوسف ، فقال انهما سيذهبان فى الغد إلى الظهيرية حيث يقيم جداه . وسيكون ذهابهما على دراجتين يقترضانهما فى الخليل . والمسافة لا تزيد على عشرة كيلو مترات . وهناك عند نقطة للمراقبة تمر الطريق المتعرجة بين التلال إلى بئر سبع . ولكنك لا تستطيع بطبيعة الحال أن تسلك تلك الطريق لأنك ستصادف بعد بضعة أميال لافتة بالعبرية تشير إلى خط الهدنة . وستجد الحراس الإسرائيليين على قمم التلال من الجانبين يأكلهم الضجر متلهفين على تسلية أنفسهم بإطلاق الرصاص على أى إنسان . وهكذا تعجز عن الوصول إلى مسقط رأسك وانت على قيد كيلو مترات قليلة منها !

وفتن انطون بالثقة ولهجة الجد اللتين يتحدث بهما وليد ، وازدادت مكانته فى نظره وهو يسمعه يقول :

ـ إن أهل أبى فى الظهيرية فلاحون فقراء كما قلت لك . ويقيم معهم الآن عمى منير الذى هاجر معنا من بئر سبع وكانت له فى ضواحيها أرض واسعة تغل عليه رزقا طيبا ، وكانت له

غيضة برتقال وحديقة خضر ودواجن يبيع ثمراتها فى سوق المدينة كل أسبوع . وقد صارت كل هذه الأراضى الآن وراء خط الهدنة . ولكننا نستطيع أن نراها عبر الوادى ونميزها بأجمة الزيتون . وعمى يقول إن من واجب الفلسطينيين التسلل عبر خط الهدنة لا لالتقاط شىء من ثمار بساتينهم المغتصبة أو لزراعة جانب من الأرض التى تسمى الآن بالشقة الحرام ـ فذلك لا يستحق العناء والمجازفة ـ بل للاتصال ببقية الفلسطينيين العرب المقيمين فى الأرض المحتلة لتنظيم حركة جدية بالتعاون معهم . بيد أنه يقول إن الأوان لم يحن بعد لتنظيم المقاومة . فلا بد لها من استعداد . ولكن يومها آت لا ريب . فليس أمامنا سبيل آخر لتحرير بلادنا بأيدينا كما هو واجبنا . ولا أكتمك أنى كنت أحلم أثناء زيارتى لوالدتى فى المالحة بأن القوات العراقية التى كنت أبصر معسكرها خارج البلدة سوف تتحرك يوما للانقضاض على حدود الأرض المحتلة والقضاء على اليهود وتحرير الوطن . ولكن هذا الحلم تبخر مع الزمن بعد أن أسعدنى فترة من الوقت . وأنا الآن واثق أن فلسطين يجب أن يتحرر بيد أبنائه قبل كل شىء . وأن الآخرين لا يمكن أن يساعدونا من غير أن نساعد نحن أنفسنا . ولهذا السبب يا انطون قررت أن أصبح معلما . فالمعلم له تأثير هائل على تلاميذه ويستطيع أن يحفزهم للنضال والتضحية . والنضال والتضحية فى سبيل حرية فلسطين هما أحوج ما نحتاج إليه . وأتمنى بعد سنوات قلائل أن يتاح لى التعليم فى مدرسة (الظهيرية) .

- ١٣ -

وكان يوسف ينظر فى اشمئزاز إلى الحارة الضيقة الطافحة بالنفايات التى أمر بالدخول فيها عند وصولهم إلى مدينة الخليل العتيقة . وازداد استياؤه وتوجسه عندما أمر بالوقوف بالسيارة قبالة بيت قديم متصدع يحتل واجهته حانوت لبيع المصنوعات الزجاجية الملونة والخرز والحلى الرخيصة ، كى ينزل السيد الصغير وصديقه .

ويوسف ينتمى إلى بيئة كهذه تماما فى اللد . ولو خير لاختار البقاء هناك قانعا بحياته ، ولكن أمانته لعمله تجعله لا يرضى لابن سيده ما يرتضيه لنفسه . وقال قبل انصرافه إنه سيعود إن شاء الله بعد غد . وكرر ذلك لسيده الصغير فى حزم . ولكن استياءه من نزول ابن بطرس منصور فى هذا البيت لم يمنعه من قبول الدعوة بكل سرور لاحتساء كوب من الشاى فى ذلك الحانوت المتواضع قبل أن يتجشم مشاق الرحلة المضنية عائدا إلى أريحا .

وصعد وليد مع صاحبه سلما معتما داخل البيت ليقدمه إلى خالته وأبنائها وبناتها . وكان وليد يحب خالته لشدة شبهها بأمه التى كان يحبها أعظم الحب .. وخالته هذه سوداء العينين ، فى منتصف العمر ، تتموج خصلات شعرها الأشيب فوق جبينها من تحت طرحه بيضاء ، وقوامها النحيل مختف تماما تحت ثوب طويل من الصوف الرمادى . وهى

ذات ابتسامة عذبة وبشاشة استطاعت أن تمحو بهما خجل انطون المعهود أمام الغرباء .

وكان واضحا جدا أن وليدا سعيد غاية السعادة بلقاء خالته وأولادها ، إذ قبل يدها ولاعب أولادها الصغار وبدا عليه الانطلاق على سجيته بصورة لم يعهدها فيه أنطون من قبل ، وهو الذى يعرفه فى المدرسة متعاليا منطويا شديد الاعتداد بتفوقه الذهنى . أما أريحا فوليد على الدوام أبعد ما يكون عن الانبهار بالبيت الفخم والمكانة الاجتماعية الرفيعة التى يتمتع بها بطرس بك . أما هنا فى الخليل بين أهل أمه فهو شىء آخر . إنه فرد فى أسرة .

وغبطه انطون على هذه الطلاقة التى لم يشعر بمثلها شخصيا وهو فى بيت داود مع بنات عمته وزوجها ، فيما عدا بعض اللحظات القلائل التى يقضيها منفردا بابنة عمته « ثريا » .

وزوج خالة وليد صاحب ذلك الحانوت المتواضع رجل جم النشاط ، ذو شارب صغير أنيق وابتسامة ودية لا تفارق شفتيه . ولديه قدرة على اجتذاب قلوب زبائنه وإقناعهم بسهولة أنه يكرم كلا منهم فى الأسعار إكراما خاصا . وكان ابنه الأكبر فؤاد يساعده فى أعماله ، وهو شاب وسيم رقيق الحاشية بارع فى الاقناع براعة أبيه الذى أعفاه من العمل فى ذلك اليوم ليصحب ابن خالته وضيفه فى تجوالهما هنا وهناك داخل البلدة وضواحيها .

وتعجب (فؤاد) عندما عرف من (أنطون) أنه برغم بلوغه الثالثة عشرة لم يزر إنجلترا مرة واحدة ، حيث يقيم جده لأمه . وسأله :

ـ الم تذهب والدتك إلى وطنها مرة واحدة ؟

فابتسم (أنطون) وقال :

ـ انهـا تقول دائما أن فلسطين وطنها .

ـ لم يعـد لهـذا الوطن وجود !

وعندئذ تدخل (وليد) فى الحديث بسرعة قائلا :

ـ بل سـيعود إلى الوجود إذا جـاهد الفلسطينيون لاستعادته !

ـ على أيام أحفادنا أو أبنـاء أحفادنا !

ـ بل قـد يحدث ذلك فى أيامنا . كل شيء يتوقف علينا !

ـ وما رأيك أنت يا (أنطون) ؟

ـ (وليد) على حق يا (فؤاد) . فلو استطعنـا تنظيم حركة للمقاومة فى الأراضى المحتلة ..

ـ فكرة جملية . ولكنها مجرد حلم !

وعندئذ ثار (وليـد) وقال لابن خالته :

ـ وإسرائيل ؟ الم تبدأ فكرتهم بحلم أشد من هـذا الحلم إمعانا فى الخيـال ؟ لو سيطر هـذا الحلم على قلوب مليون فلسطينى شـاب فلا بد أن يحفزهم على تحويل الحـلم إلى حقيقة ، بالإصرار والكفاح !

***

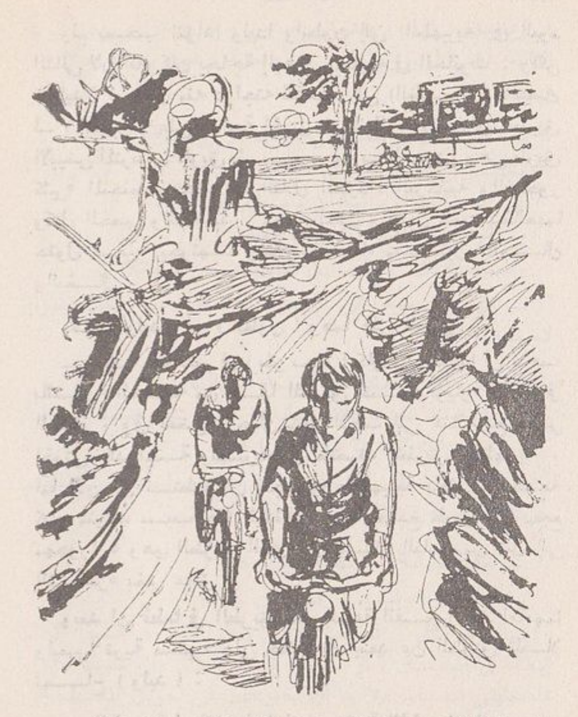
ولم يصحب (فؤاد) وليدا وانطون إلى (الظهيرية) فى اليوم التالى لأن أباه كان بحاجة إليه كى يعاونه فى الحانوت . ولكن (وليد) استعار منه دراجته للذهاب إلى (الظهيرية) ، وحصل لـ (أنطون) على دراجة أخرى ، وانطلق الاثنان فى الطريق الأبيض المترب ـ طريق بئر سبع ـ صوب الحدود. وهى طريق كثيرة المنحنيات تحف بها التلال الجرداء البركانية والصخور وكتل الحصى والجلاميد . وبين الحين والحين كانت تطالعهما حقول صغيرة يحرثهـا رجال ونسـاء مستعينين بالجمال والبغـال .

وقال (وليد) لـ (أنطون) وهما على الطريق :

ـ عندما كنا نقيم فى (بئر سبع) كان من عادتنا أن نذهب بالسيارة العـامة من هـذا الطريق نفسـه لزيارة خالتى فى الخليل . وفى بعض الأحيان كنت أذهب إلى هناك مع بعض إخوتى بالدراجـة ونستريح فى منتصف الطريق بالظهيرية . أما الآن فلا نستطيع أن نتجاوز الظهيرية بأكثر من تسعة كيلو مترات بسبب خط الهدنة . ولذا أصبح طريق بئر سبع مهجورا ، وهو الطريق الذى كان يسلكه الناس من قبل إلى القـاهرة بغير عائق !

وبعد أن قطعا فى الطريق نحو ساعة انفسح الأفق أمامهما وأبصرا قرية صغيرة على جانب تل يبعد عن الطريق تليـلا فصـاح (وليد) :

ـ الظهيرية ! ولكنى احذرك من خيبة الأمل عندما ترى بيت جدى . فهم فقراء جدا . ولكنهم سيرحبون بنا أحر ترحيب .



وحصل لانطون على دراجة أخرى ، وانطلق الأثنان فى الطريق الأبيض

وبين صفوف من البيوت المبنيـة بالطين وقـد تصدعت جدرانها ، وخرجت منها كلاب هزيلة نابحة يزيد عددها على عدد أشجار التين ويكاد يتساوى مع عدد الأطفال الحفاة فى أسمالهم البالية ، شق الرحالتان طريقهما . وفجأة ظهر غلام فى جلباب رث مخطط ورحب بـ (وليد) وعانقه وقبل وجنتيـه ، وقدمه (وليد) لـ (أنطون) :

ـ ابن عمى (سعيد) .

وقال (سعيد) إن أباه وجده فى الحقل ولكن أمه والأطفـال و « جدتـه » فى البيت . وأنه سيصحبهما إلى الحقل بعـد أن ينالا قسطا من الراحة ويشربا الشاى ويغتسلا .

ودخلا فناء تغمره الشمس ويلعب فيه عـدد من الأطفال الصغار تحت نظر امرأتين إحداهما بدينـة عجوز والأخرى نحيفة شابة مليحة الوجه تعجن جانبـا من الدقيق فى وعاء أمامها على الأرض . ونهضت هذه الشابة ورحبت بـ (وليد) وضيفه . وعرف (أنطون) أنها عمة (وليد) وأن العجوز جدته. وقام (وليد) بتقديم (أنطون) وأوجز تاريخ حياته فى كلمات قلائل للمرأتين . وكان أهم ما أوضحه لهما أن أسرته من (اللد) وانهم من بين من أخرجهم اليهود من ديارهم . وأظهـرت المرأتان عطفا بالحب على أنطون وما منيت به أسرته من الشدائد .

ثم خرجت زوجة عمه (منير) من البيت حاملة خوانا نحاسيا تعلوه أكواب الشاى ، مرتدية ثوبا فضفاضا أسـود اللون مزركشا من الجانبين بنقوش حمراء . وخيل لـ (أنطون) من

فرط رقتها أنها تطير فى الهواء ولا تمشى على الأرض ، وذكرته عذوبة ملامحها بأيقونة قديمة للسيدة العذراء .

وبعد احتساء الشاى وتبادل كثير من الأسئلة عن أحوال الأقارب والمعارف نهضوا جميعا وتولى سعيد قيادة الغلامين وسط تيه من الأزقة إلى الأرض المكشوفة التى تحف بها التلال .

ووسط الحقول التى يعمل الرجال والنساء فى فلاحتها مستعينين بالجمال والبغال أبصرا دربا غير ممهد يسلكه الناس ويؤدى فى النهاية إلى أرض عراء تحت سفوح التلال الصغيرة تشغلها عشرات من خيام البدو السوداء .

ولاحظ (وليد) أن (أنطون) يرمق تلك الخيام السوداء باهتمام ، فقال له :

ــ هؤلاء ايضا لاجئون . لا مورد لهم هنا إلا عطف أهالى المنطقة الفقراء .

وعبر الثلاثة دربا آخر وساروا قليلا فوق التربة الحمراء إلى أن بلغوا قطعة من الأرض يقوم بعزقها برغم وعورتها وكثرة الصخور فيها شيخ متقدم فى السن ، وشاب وسيم فى نحو الخامسة والثلاثين .

وانتصب الرجلان عندما أبصرا الغلمان الثلاثة يقتربون منهما . ثم لم يلبثا أن أطلقا صيحات الدهشة والترحيب . ومرة أخرى كان على (وليد) أن يدلى لعمه « منير » وجده

بالبيانات الكافية عن زميله وصديقه (أنطون) . وما أن عرف (منير) بغرضهما من هذه الرحلة وهو مشاهدة (بئر سبع) عبر الوادى حتى تأججت حماسته وأظهر اهتماما بالغا ، وتطوع من تلقاء نفسه بأخذهما إلى ذلك الموضع من التلال الذى يستطيع الواقف فيه أن يرى ــ عبر الوادى ــ أرض (منير) ، وبساتين البرتقال ، ومزرعة الدواجن ، وأجمة الزيتون التى استولى عليها اليهود ويستغلونها الآن أسوأ استغلال !



- ١٤ -

سار اربعتهم فى درب وعر مسافة لا تزيد على بضع ياردات إلى أن بلغوا جانب التل فارتقوه ، ليجدوا أمامهم منظرا فسيحا لواد متماوج الأديم ، تحده من الجانب الآخر سفوح جبال صغيرة قائمة الارتفاع كأنها الجدار الأصم ، وقد بدت الأرض فى أشعة الشمس اللطيفة فى تلك الظهيرة من شهر أبريل جميلة وادعة .. فوقف السائرون برهة صامتين ينظرون فى جنبات ذلك الوادى ، وقد استولت على مشاعرهم المفارقة المذهلة : بين الجمال الآمن والوحشية الغاصبة التى تتمثل فى التفريق بين هذه الأرض الموروثة وبين ابنائها الذين امتزجت أجساد أجدادهم بترابها ، ورووا أديمها بعرق جباهم سنين عديدة ..

وقطع الصمت الحزين المتوتر قول الرجل المسن مهمهما : « يا لأرضنا الجميلة السليبة ! » .. وكأنما كانت هذه الكلمات إيذانا لكل منهم بأن يقول ما يجول فى خاطره ، فلمس (منير) ذراع (أنطون) وقال له :

ـ أترى شجرة الزيتون تلك التى تتراءى هناك عن يسارك ، فوق مستوى الأرض بقليل ، عند أولى بدارى هذا التل ؟

ـ نعم . تلك التى هناك قرب النخلات الثلاث .

ـ تلك زيتوناتى . ومن تحتها حديقة خضراواتى . كيف

لا يدرى كل من ينعم بهذه الثمار أنه إنما يشترى سلعا مسروقة . سلعا مغصوبة من أصحابها الشرعيين ؟

وتأثر أنطون تأثرا شديدا ، ولكنه غالب تأثره وقال : « يوما ما ستزرع هذه الأرض بنفسك مرة أخرى ! » .. فقال الشيخ المسن فى همهمته الخفيضة : « إن شاء الله يا بنى . إن شاء الله » .. ولكن (منير) أجاب بحدة : « سواء زرعتها أو لم أزرعها بنفسى ، فيوما ما سأعود ! » .

ثم استداروا بوجوههم ومشوا فى صمت عائدين إلى الطريق الرئيسى ، وقد أصبح طريق (بئر سبع) باديا للعيان بوضوح تحت أقدامهم .. ذلك الطريق العتيق الذى يتلوى ويتعرج بين التلال الجرداء التى تطبق عليه من الجانبين .

واستوقف « وليد » « أنطون » ليشير له إلى الطريق ، وقال : « ليس فى وسعك أن ترى (بئر سبع) من هنا ، لأنها تقبع متوارية هناك خلف تلك التلال . والحراس الإسرائيليون جاثمون على رؤوس التلال على جانبى الطريق » .

وقال (منير) « إننا كثيرا ما نراهم ونحن نعمل هنا فى الحقول ، وينظرون إلينا من فوق ونحن نعمل . ونحن نعلم أنهم هناك يرقبوننا ، وهم يعلمون أننا نعلم ذلك » .

فاستطرد (وليد) : « وعلى هذا الجانب نقطة مراقبة بها جنود من الحرس الوطنى الأردنى يستطيعون من موقعهم العالى أن يروا الطريق إلى مسافة بعيدة بوضوح . وبتصريح منهم تستطيع أن تمضى حتى الأحجار البيضاء الدالة على خط

الهـدنة . فاذا تجاوزت ذلك الموضع وجدت الطلقات الإسرائيلية فى انتظارك من جانبى الطريق . و (بئر سبع) لا تبعـد أكثر من خمسة عشر كيلو مترا ، للسائر من هـذا الطريق . تصور هـذا ! إنها مسـافة لا تزيد على المسافة التى قطعناها من الخليل إلى هنـا ! ولكن الطريق لا يصلح إلا وسيلة للهداية المؤقتة ، لانك متى أوغلت فى الوادى غاب الطريق عن نظرك وراء التلال . فاذا درت حول التلال صرت فى محاذاة الطريق مرة أخرى ..! » .

وكان « سعيد » قـد لحق بهم ، فقال ضاحكا : « جميع التفاصيل واضحة فى ذهن (وليد) . حتى لتحسبه وهو يتكلم قـد أعـد خطة مفصلة التسلل ! » .

فأجاب (وليد) ، جادا : « هذا صحيح. ولكن الأوان لم يأن بعد . فلا بد لى من قضاء عطلات كثيرة أخرى هنـا أدرس فيهـا كل صخرة وكل مسلك ، إلى ان يمسى فى استطاعتى التعرف على طريقى فى ليلة ظلماء لا قمر فيها . بل ينبغى أن آتى وأعيش وأعمل هنـا حتى يألف جنـود الحرس الوطنى والبدو منظرى ويصير فى مقدورى أن أغدو وأروح من غير أن أثير ريبتهم أو فضولهم ! » .

فرمق (منير) ابن أخيه بنظرة إعزاز وسرور وهم عائدون فوق الأرض المحروثة فى اتجاه القرية ، ثم قال بعد برهة :

ـ يبدو انك رتبت كل شىء سلفا !

ـ ليس كل شىء . ولكن كل شىء سيكون معـدا بجميع تفاصيله عندما يحين وقت استعدادى للانطلاق ..

وفى البيت جلسوا مرة أخرى فى الفناء المشمس فوق عدد من الوسائد والحشايا ، وانعشوا أنفسهم باحتسـاء أكواب الشاى الصغيرة ، فى حين انصرفت النساء وبصحبتهن نساء الجيران اللواتى جئن كعادة العرب للمساعدة فى المناسبات ، كى يصنعن عـدة ألوان من الطعام فوق مواقـد مكشوفة صنعنها من قوالب الآجر .

وفى خلال الانتظار الطويل لنضج الطعام ، وجه (منير) إلى (انطون) أسئلة حول المسيرة المشهورة من (اللـد) ، وحول الأحوال فى (رام الله) عنـدما تدفق عليهـا المهاجرون من (اللد) وغيرها ، وعن (أريحا) وما صارت إليه الآن .. وحدثه من جانبه عن (بئر سبع).. وشعر (انطون) بحداثة سنه وعدم كفاءته لهذا الحديث ، وتمنى لو أن أبـاه كان حاضرا لينهض بادارة دفة الحديث على خير وجه . بيد أن « منير » أعجب بالغلام كثيرا وناشده أن يقنع أباه بابقائه هنا فلا يرسله إلى الجامعة فى إنجلترا بعد إتمام علومه الثانوية :

ـ ابق هنا واعمل مع « وليد » كى تكون واحدا منا !

وأجاب (انطون) أنه كان يـود ذلك ولكن والده مصمم . وأردف :

ـ فى وسعى دائما أن أعود .

ـ إن شاء الله . ولكن المرء لا يستطيع أن يكون على يقين من أمر العودة . فما أن تغادر مكانا ما حتى تجد من الصعب جدا فى بعض الأحيان أن تعود إليه . هـذه تجربتى وتجربة كثيرين .

وغدا الحديث عموميا . ونهض (وليد) بجانب كبير منه فى براعة ، ففاضت نفس (أنطون) بالإعجاب به . فما أروع أن يكون للمرء صديق لامع كهذا . وتمنى من أعماق قلبـه أن تمر السنون سراعا كى يقارب وليد فى المستوى الثقافى والذهنى . وخطر بذهنه انه حين يغدو فى السادسة عشرة و (وليد) فى الثامنة عشرة لن تكون الهوة بينهما بهذا العمق .

وبعد أكثر من ساعة اقبلت زوجة (منير) فدعتهم إلى الطعام ، فنهضوا أولا إلى ركن الفناء حيث قام (سعيد) بصب المـاء على أيديهم من ابـريق نحـاسى له ميزاب طويل . وجففوا أيديهم بقطعة من القماش الأبيض النظيف ، ثم دخلوا الدار .

وبدا داخل الدار فى البداية شديد العتمـة . ولكن عنـدما تعودت العيون على تلك العتمة رأوا امامهم مائدة مستديرة منخفضة جدا ـ « طبلية » ـ موضوعة على الأرض فى وسط الحجرة وعليها أطباق كثيرة ، تتوسطها قصعة بها تل ضخم من الأرز باللوز ، وقد دست فيه ارباع من الدجاج المحمر . وكانت النساء قد انتهزن فرصة انشغال الرجال بغسل أيديهم فأتين بالوسائد والحشايا من الفناء ووضعنها حول «الطبلية» .

وجلس (منير) وابن أخيه وضيف ابن أخيه. ولما كان (انطون) ضيف الشرف فى تلك الوليمة فقد دس (منير) يده فى جبل الأرز واستخراج قطعة ممتازة من الدجاج المحمر قدمها إليـــه .

ولم يكن أنطون قد جرب الأكل على هذه الطريقة من قبل . وقد وجدهـا طريقة طريفة ، لولا أنهـا صـعبة على من لم يتعودها . وبطبيعة الحال كان أكل الدجاج باليدين أسهل من أكل الأرز بلقم كبيرة من الخبز .

ولم تأكل النساء مع الرجال بل انصرفن لخدمتهم . وعندما قارب الطعام نهايته ذهبت زوجة (منير) لتصنع القهوة ، وعاد الرجال إلى الفناء حيث غسلوا أيديهم واسترخوا فترة قصيرة فوق الحشايا وهم يحتسون القهوة العربية المرة السوداء .

وبعد قليل أعلن (وليد) انه لا بد أن يشرع وصديقه (أنطون) فى رحلة العودة إلى (الخليل) ، فخرجت الأسرة عن بكرة أبيها إلى الطريق الرئيسية لوداعهما ، وألحوا عليهما بتكرار هذه الزيارة فى وقت قريب ، ثم شـيعوهما بالكثير من صـيحات « مع السلامة » ودعوات الرعاية والتوفيق .

وقال (وليد) بحرارة ، وهما يدرجان بين التلال الجرداء : « إنهم قوم طيبون . وأنا أشعر دائما بالأسى عنـد فراقهم . ولكنى سآتى يوما ما وأعيش بينهم ، وسأحضر معى والدى » .. ثم ضحك ضحكة سعادة صافية ، واستطرد : « سنكون عندئذ معا مرة أخرى، على طريق « بئر سبع » ! وانى لآمل أن تأتى عندئذ وتستقر معنا هنا . وسنعد العدة للتسلل إلى (بئر سبع) معا يا عزيزى (أنطون) ! » .

فأجابه أنطون بحماسة :

ـ إن شاء الله !



— ١٥ —

تركت زيارة (الظهيرية) فى نفس (أنطون) اثرا عميقا، وظل يفكر فيها باستمرار عند عودته ، ويدير فى رأسه الأمور التى حدثه عنها « وليد » وعمه حول طريق (بئر سبع) القديم الذى لا يجسر الآن إنسان على السير فيه ، بسبب قناصة اليهود المتربصين فى التلال على جانبيه وعند منعطفاته الكثيرة .

وكان رد الفعل لديه لأحاديث (وليد) ـ عن التسلل وإنشاء حركة مقاومة داخل إسرائيل — لا يعدو أن يكون ضربا من خيالات صبيان المدارس فى ذلك الحين ، ولكن كانت فى تلافيف هذه الخيالات بذور مختمرة لأفكار غرسها « وليد » فى ذهنه الغض .

واستطاعت الحياة العادية فى المدرسة أن تستأثر بعد حين بمعظم اهتمام (أنطون) ، ولم تعد القضية الفلسطينية ذات شأن كبير فى نظره ، و (وليد) نفسه شغله الاستعداد للامتحانات عن الخوض فى موضوع القضية الكبرى وتحرير الوطن السليب من أيدى الغاصبين .

وطفت حرارة الصيف المخيفة مرة أخرى على (أريحا) ، فظل (أنطون) مقيما فى (رام الله) . وأرهقت هذه الحرارة أعصاب (ماريان) إلى حد الإعياء ، فراح (بطرس) يحثها باستمرار على الصعود إلى التلال الرطبة . ولئن كانت غير ميالة للإقامة فى (رام الله) مع (منى) و (خليل) ، ففى وسعها

على كل حال أن تقيم مع والدى (نصرى) فى بيتهم بضواحى (القدس) . وإن كانت كارهة للذهاب إلى هناك وحدها فهو مستعد أن يذهب معها وأن يبقى بجوارها بضعة أسابيع .

وكان ردها على مثل هذا الكلام ابتسامة إعزاز ، ثم كانت تعيد عليه قولها الذى تكرره دائما : « إن البقاء حيث نحن يتقاضانا مجهودا أقل من الانتقال إلى اى مكان آخر ، بحيث تبدو الحرارة فى ظل الراحة أمرا محتملا » .. فقد كانت تعلم أن (بطرس) لا رغبة لديه فى مبارحة بيته بـ (أريحا) . وأنه يفضل تحمل الحر المحرق على الاضطرار لمجاذبة أطراف الحديث من يلتقى بهم من الناس متى غادر ذلك البيت ، فإن (دار السلام) بـ (أريحا) هى واحة الأمان الوحيدة له فى هذا العالم المنقسم .

.. وكذلك كانت زوجته (ماريان) ، تؤثر عذاب الحر على ضجة الحياة العائلية الصاخبة فى بيوت أصهارها . وكانت تذهب إلى سوق (أريحا) مع الطاهى (يوسف) أو زوجته لشراء لوازم البيت أو إحضار البريد . وكان والدها يرسل اليها الطبعة الأسبوعية من « التايمز » بالبريد الأسبوعى ، كما ترسل إليها أمها بطريق البحر إحدى المجلات النسائية الحافلة بوصفات للطهو بعيدة عن التوفيق ، ونماذج للأزياء أشد بعدا عنه ، وقصص غرامية لا يمكن أن تدخل فى عقل إنسان راشد . وكانت أمها تصر على موافاتها بتلك المجلة كى تبقى على اتصال بما يجرى من حياة عائلية للطبقة الوسطى فى انجلترا . ومن حين لآخر كان والدها يرسل إليها ملحق

« التايمز » الأدبى لتظل على اتصال بالثقافة الإنجليزية والعالمية . . وهكذا كانت (ماريان) تجلس فى الشرفة بجوار المروحة عندما يشتد الحر ، وتأخذ فى تقليب صفحات هذه المطبوعات وفى ذهنها من الهمود ما يمنعها حتى من قراءة العناوين بطريقة مجدية !

أما فى المساء فالحرارة تهبط بضع درجات ولكنها لا تصل إلى الحد المنعش ، فتنتعشى (ماريان) مع (بطرس) فى الشرفة التى تطوقها الأسلاك الرفيعة بشبكة تمنع عنها الهوام ولا سيما الناموس . ومن جوف الظلام الحالك تترامى إليهما أصوات الجنادب فى الحديقة . وبين الحين والحين يأتيهما عن بعد صراخ ابن آوى ، فترتعد فرائص (ماريان) خوفا . . وبمجرد الانتهاء من تناول العشاء وانسحاب الخدم ، يضطجع الاثنان فى كراسى القش المنخفضة ويصغيان للإذاعات . . ففى بعض الليالى تذيع محطة بيروت برنامجا جيدا من الموسيقى الغربية. ولكنهما يهتمان فى الغالب بالإصغاء للأنباء وللأغانى الشرقية الغرامية التى تفيض أسى وشجنا . . ثم يأويان فى النهاية إلى فراشهما ، لا ليخلدا للنوم — لأن الحرارة الخانقة لا تسمح بذلك — بل لمجرد الاستلقاء تحت المروحة الكبيرة المعلقة فى السقف والاسترسال فى أحاديث متقطعة ، تفصلها فترات صمت طويلة .

وفى بعض هذه الأحاديث قد تثير (ماريان) ذكر الحياة السابقة فى (اللد) . وحين تصمت تفكر بينها وبين نفسها فى زوجة (بطرس) الأولى، ويخامرها الفضول بصددها، برغم ازدرائها

لها . أما (بطرس) فيطرق فى شرود ويفكر فيما عساها كانت تكون عليه حياة (ماريان) لو أنها لم تسمح لنفسها بالتورط فى زواجه . إنها كانت حرية الآن أن تكون فى إنجلترا مع أبويها ، متزوجة من رجل إنجليزى يقاربها فى السن ، بدلا من الاضطجاع فوق هذا الفراش مع رجل مسن عليل ، تصطلى حرارة (أريحا) المحرقة تحت مستوى سطح البحر !

وعندما تلح عليه هذه الأفكار الحالكة ، كان يتحسس فى الظلام باحثا عن يدها ، كى ترتد إليه الطمأنينة عندما يتلقى على يده ضغطة الاستجابة من يدها .

وفى إحدى تلك الليالى ، قال لها : « لماذا تزوجتنى يا عزيزتى المسكينة (ماريان) ؟ ماذا كسبت من وراء ذلك ؟ » .

— شيئين : أنت و (أنطون) !

— زوج مسن وولد وحيد . وحتى البيت المناسب ضاع من يدك . ولم تبق لك إلا (أريحا) على مدار السنة !

— لطالما أحببت (دار السلام) وأحببت (أريحا) .

— إنك لم تذوقى عذابها فى أغسطس من قبل !

— كل شىء يتعوده الإنسان بالتدريج .

— اعترفى على الأقل أنك تتوقين لإنجلترا منذ حللنا هنا !

— لماذا تقول هذا ؟ إنى لم أتشوق إلى انجلترا ! بل تشوقت لـ (اللد) ولـ (دارة الخير) ! ولكن كان من الجائز أن نهلك فى البرية كما هلك كثيرون غيرنا. فالحمد لله أننا وصلنا سالمين إلى هنا واجتمع شملنا ! إن الحر شديد فلا تجعلنى أبكى لكلامك هذا !

ثم تنفجر باكية فيخفف ذلك من توترها العصبى .

❋ ❋ ❋

وفى أول ذكرى للخروج من (اللد) استولت على (بطرس) رغبة محمومة فى السفر إلى الحدود والنظر عبر السهل الساحلى إلى البحر . وربما استطاع أن يقف فى موضع ما يبصر منه (اللد) نفسها . وفى هذه الحالة لا بد من تصريح من السلطات العسكرية . ولكن مثله لن يجد عناء شديدا فى الحصول على ذلك التصريح .

واستولى الأسى على (ماريان) عندما أخبرها برغبته فى طلب ذلك التصريح وقالت :

— كيف يمكن أن تتحمل منظر اللد من بعيد وأنت عاجز عن دخولها ؟ سيكون وقع ذلك سيئا عليك .

— بالعكس . إن السجين يجد سلوى فى مشاهدة زوجته عندما تزوره من وراء القضبان ، مع أنه عاجز عن معانقتها !

— ولكن الانفعال سيكون قاسيا عليك !

— لن آخذك . سآخذ معى (أنطون) وسيتولى (يوسف) القيادة .

— لا أستطيع البقاء هنا وتركك تمضى مع (أنطون) . وما دمت مصمما فسنذهب كلنا كما قطعنا كلنا تلك المسيرة عند الخروج . وأنا واثقة أن المسألة كلها خاطئة من أساسها !

— ليس بالنسبة لى يا عزيزتى . إن هذه الرحلة لا غنى لى عنها . وإنها أشبه بالذهاب إلى الكنيسة فى عيد الميلاد أو عيد الفصح ! إنها فرار مقدس . بل حج !

— ١٦ —

أعدت الترتيبات للقيام بهذه الرحلة فى صباح السبت كى يتسنى لأنطون الاشتراك فيها . وانطلقوا بمجرد شروق الشمس مخترقين الوادى إلى (رام الله) . وكان يوسف كارها للقيادة فى البرية فاقترح الذهاب عن طريق القدس ، على اعتبار ان الحالة الآن هادئة .. ولكن بطرس اعترض بشدة ، لا خوفا من القناصة بل لأنه كان لا يطيق أن يرى المدينة المقدسة مقسومة ، وأن تكون بعض معالمها الحبيبة فى أيدى اليهود !

وتذكرت ماريان فى تلك الرحلة أسفارها القديمة . وتذكرت على الخصوص رحلة القدوم إلى أريحا منذ سنة ، فى أول عهدهما بالهجرة . ووقع نظرها على مخيمات اللاجئين من البدو ، وحول خيامهم السوداء قطعان الماعز ، وبضعة جمال ترعى الشوك فى البرية ، وعجبت كيف يستطيع هؤلاء الناس ان يعيشوا فى أرض خالية من الماء .

ووصلوا إلى (رام الله) فى نحو الثامنة صباحا ، فاذا بالهواء المنعش محمل بعبير أشجار الصنوبر ، فراحا يملآن صدريهما فى سرور وكل منهما يرمق الآخر باسما . ولا شك أن يوسف لم يكن أقل منهما سرورا وهو يستنشق ذلك الهواء المنعش امام عجلة القيادة . وكانت رام الله قد خلت تقريبا من اللاجئين الذين كانوا يبيتون على أرصفة شوارعها وفى ظلال زيتونها ،

بعد أن قامت السلطات بترحيلهم إلى معسكرات أقيمت على سفوح التلال .

وكان فريد وماجدة ونادية وانطون ووليد وبنات داود يتناولون جميعا الأفكار فى الشرفة الكبيرة بالطابق الأول ، عندما وقفت سيارة بطرس منصور امام بوابة الحديقة ، ونفخ يوسف فى بوقها ، فنظر الجميع صوبها وأسرع انطون يهبط السلالم ويخترق الحديقة لاستقبال أبويه .

وكان وليد موجودا لأن انطون الح على أبيه فى اصطحابه إلى (بدرس) وهى قرية على الحدود تواجه (اللد) . وكان سرور وليد عظيما عندما سمح بطرس بك بذهابه معهم . والحقيقة أنه استبشر بقيام آل منصور بتلك الرحلة لأنها ستقوى من شعور أنطون بمأساة الاحتلال والتقسيم حين يقف على الحدود ويرى مسقط رأسه على مرمى البصر وهو عاجز عن الوصول إليه لأن الغاصبين يحتلونه !

ومكث آل بطرس منصور ساعة لتناول القهوة وتبادل الأخبار ومنها أن نصرى عين فى الفيلق العربى ، وأن نادية ستضع طفلها الجديد — من زوجها — فى نهاية الشهر ، وسيحضر نصرى يومئذ فى اجازة . أما « منى » وخليل فكانا غائبين عن الدار فى زيارة لوالدى خليل فى (جنين) الواقعة فى الشمال . واعتذر فريد من عدم قبول الدعوة للانضمام إلى المسافرين صوب (بدرس) لأنه بدأ مشروعا جديدا هو إدارة « جاراج » مع لاجىء فلسطينى آخر ، وعليه أن يعنى بأشياء كثيرة

منها أنه سينتقل مع ماجدة ونادية إلى « شقة » فى وسط المدينة بالقرب من « الجراج » بعد ولادة الطفل مباشرة .

واتفقت كلمة الجميع على أن بطرس يبدو منحرف الصحة ، وأن ماريان يبدو عليها الإعياء ، وأنهما يخطئان خطأ فادحا بالبقاء فى أريحا طوال الصيف ولهما بيت مفتوح لاستقبالهما فى رام الله . ولم يجب بطرس وماريان على ذلك كله بغير الابتسام والاعتذار .

وفى النهاية انطلق الركب صوب (نعلين) ، وأنطون يشرح لصديقه « وليد » معالم المسيرة التى قطعاها فى البرية مع عشرات الألوف من المهاجرين من (اللد) . وكيف أن الحظ واتاهم فوصلوا سالمين لأن سيارة زوج عمته خليل داود حضرت لتقلهم من مسافة بعيدة . ولكن ألوفا غيرهم هلكوا فى البرية !

وعند قرية (نعلين) طلب أنطون من أبيه أن ينتظروا قليلا كى يرى صديقه « وليد » معالم المغامرات التعسة التى حدثت فيها منذ عام ، وكيف كان عشرات الألوف يتكالبون على نبع الماء الوحيد !.. أما بطرس وماريان فكانا ينظران إلى هذه المواضع المثيرة للشجن ولا يتكلمان .

وبعد قليل استأنفت السيارة مسيرها إلى نقطة المراقبة يحف بها نبات التين الشوكى ، فأبرز بطرس التصريح الذى يحمله ، وركب فى مؤخرة السيارة رجل من الحرس الوطنى ليصاحبهم حتى قرية (بدرس) * . وبطرس جالس بجوار

السائق قابضا بيديه على عصاه ومنحنيا إلى الأمام مطبق الشفتين ، يحدق فى السهل الساحلى المترامى من تحته ، ذلك السهل الذى يفضى إلى البحر . إنه سهل فلسطين المحرم على الفلسطينيين !

وعلى جانبى الطريق كان الأطفال الحفاة العجاف يخرجون بعيون لامعة ليلوحوا بأيديهم للسيارة وليجروا وراءها . وعندما انتهى الطريق الوعر إلى موضع لا يصلح لمسير السيارة ، توقف يوسف ونظر إلى سيده متسائلا . فقال له بطرس : « انتظر » .

ثم نزل ، تتبعه ماريان والصبيان وجندى الحرس الوطنى الذى قادهم إلى مرتفع من الأرض على سفح التل ، وراء آخر بيت من بيوت القرية . وهناك وقفوا جميعا ينظرون إلى السهل من تحتهم . وعلى مسافة قريبة ، وسط الضباب الذى تصعده الحرارة الشديدة ، قال لهم الجندى إن مدينة (اللد) تقبع هناك . ثم خلع نظارة الميدان من عنقه وسلمها لبطرس الذى شكره ووضعها على عينيه وراح يضبطها ، ثم جمد فى مكانه وركز حواسه كلها فى عينيه : ها هى مآذن المساجد وأبراج الكنائس وصهريج الماء . ها هى المعالم المألوفة فى المدينة الحبيبة . وبعد دقيقتين التفت إلى ماريان ومد إليها يده بالمنظار وهو صامت ، ولكنها هزت رأسها .. فقال انطون فى لهفة بالغة : « أنا من فضلك يا أبى ! » .

فقدم إليه أبوه المنظار ، ولم يلبث أن صاح الفتى : « كل شىء يبدو فى غاية الوضوح ! » .

فقال بطرس بألم : « ما عدا بيتنا ! » .

ـ ولكنى أرى بيوتا كثيرة غيره . وأشجار النخيل فى الحدائق . انظر يا وليد ! ها هى اللد ! وبيتنا هنا وفيه كل مقتنياتنا . تصور !

وتناول وليد المنظار من أنطون . واعتمدت ماريان على ذراع زوجها وقد اشتد اضطرابها ، فربت على يدها بحنان ، وتراجعا صوب السيارة تاركين أنطون يشرح لصاحبه «وليد» معالم بلده . أما هما فلم يتكلما وإنما جلسا فى السيارة صامتين إذ لم يكن لديهما ما يقولان فى تلك اللحظة التى تفيض مرارة وإنما تعجز الألفاظ عن سبر غورهما ..

دمر اليهود بالقنابل تلك القرية الصغيرة بعد أربع سنوات من ذلك التاريخ ، فى سنة ١٩٥٣ ، عندما هاجموا فى نفس الوقت قرية (قبية) القريبة منها ونسفوا بالديناميت ٤٢ بيتا على سكانها !.. ومن فر منهم حصدوه بالرصاص ، فكانت مذبحة أشبه بمذبحة (دير ياسين) !



- ١٧ -

وبعد هذه الرحلة ساءت حالة قلب بطرس ، الذى عارض ماريان فى استدعاء طبيب من رام الله — فهو لا يؤمن بالأطباء وحسبه ما لديه من عقاقير — وأبى أن يصغى لما تكرره زوجته عن الأدوية المبتكرة لعلاج القلب . وهو على الخصوص لا يريد أن يعلم أحد من أقاربه بمرضه حتى لا يحتشدوا حوله ويحملوه قسرا إلى المستشفى الأمريكى . إنه يأبى أن يبارح (دار السلام) فى أريحا إلا ليرقد فى منازل السلام رقدته الأبدية بالقدس .

وخلال شهرى يوليه وأغسطس القائظين كان يمضى سحابة النهار فى شرفة الطابق الأرضى وأمامه بساتين البرتقال التى توهمه أوراقها الخضراء المتشابكة بأنها تلطف الحرارة بعض الشيء . ولم يصعد إلى الطابق العلوى مرة واحدة بعد عودته من زيارة الحدود لأنه أصيب بنوبة قلبية عقب وصوله إلى أريحا مباشرة . وكانت أسوأ نوبة أصابته حتى الآن .

ولم يكن يستطيع — وهو جالس فى الطابق الأرضى ، فى ظلال أشجار السرو — أن يرى معسكر اللاجئين ، على سفح التل الأجرد ، ولكنه ليس بحاجة إلى رؤية المعسكر كى يتذكر ألوف الرجال والنساء من المسنين والأطفال الذين ينتظرون هناك يوم العودة إلى ديارهم وأراضيهم ، وهم فى أسوأ حال ، يقتاتون بالنزر اليسير من الصدقات !

وكانت أنباء الإذاعة والصحف تتحدث عن « لجنة فى الأمم المتحدة لرعاية أحوال اللاجئين الاقتصادية » .. ولكنه لا يثق باللجان إلا بمقدار ما يثق بالأطباء ! وهو واثق أن اللجنة ستقترح مشروعات للعمل فى البلاد التى تستضيف اللاجئين ، متجاهلة أن الفلسطينيين لا يريدون إلا شيئا واحدا . وهذا الشيء الواحد هو : العودة !

وبالفعل تكونت فى ديسمبر وكالة للإغاثة والتشغيل لرعاية اللاجئين الفلسطينيين . ولكن بطرس منصور لم يبلغه هذا النبأ ، لأنه كان قد مات منذ ثلاثة شهور !

لقد وافاه الأجل فجأة فى أوائل أكتوبر بعد عيد ميلاد انطون الثالث عشر ، فى ساعة مبكرة من الصباح . وكانت ماريان قد غادرت الحجرة التى ينامان فيها لتستنشق الهواء فى الشرفة ، عقب استيقاظها كعادتها كل يوم . وصافحت أنفها رائحة القهوة منبعثة من المطبخ . وفجأة سمعت صرخة متحشرجة من ورائها ، فالتفتت لترى بطرس جالسا على حافة الفراش يحملق فيها ولا يستطيع أن يتكلم .. وقبل أن تصل إلى المنضدة لتأتيه بالحبوب المسكنة كان قد سقط بثقله كله بين ذراعيها ، فصاحت :

— أنطون ! أنطون !

وأسرع الصبى إليها ، ورأى وجه أبيه ، وأدرك كل شيء !

* * *

وفى الليل رقـد الفتى وأمه فى الظـلام جنبا إلى جنب . وتذكرت ماريان كيف كان بطرس يرقـد هكذا ويمسك بيدها ويقول لهـا :

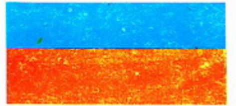
ــ عندما ينقضى أجلى لا تبقى هنا . أذهبى إلى أبويك فى إنجلترا . ولابد لأنطون من الذهاب إلى هنـاك عمـا قريب على كل حال . وسيتولى خليل إدارة هذه الضيعة ، وسيكون لديك من المـال ما يكفى لإرسال أنطون إلى المدرسة . لن تكون لك حياة هنا من بعدى . أما أنا فقد انتهت حياتى منذ غادرت البلـد ..

لقد كان هذا حديثه أيضا إليها عشية الصباح الذى وافته فيـه المنيـة فجأة .. وكانت هـذه مشيئته .

انتهى القسم الأول من القصة ، ويليه القسم الثانى والأخير ، (وعنوانه : المنفى .. ثم العودة) .







مطبوعات كتابى
إصدار جديد

عزيزى القارئ :

«إيثيل مانين» ـ مؤلفة هذه الرواية المشوقة ـ روائية إنجليزية معاصرة ، من أصل ايرلندى . ولدت فى لندن عام ١٩٠٠ . وهى تعتبر «عصامية» ثقفت نفسها بنفسها ـ إذ اضطرتها الظروف إلى ترك المدرسة فى سن ١٤ سنة ، كى تعمل كاتبة اختزال فى وكالة للإعلانات ، ثم تدرجت فى العمل حتى صارت ـ فى سن ١٧ سنة ـ مساعدة لمحرر المجلة المسرحية والرياضية (ذى بليكان) .. وفى سن الثانية والعشرين كتبت روايتها الطويلة الأولى ، ودخلت بها مسابقة للقصة الطويلة ، ومنذ ذلك التاريخ دأبت على نشر رواية طويلة كل عام بانتظام .. كما ألفت عدة كتب فى أدب الرحلات وصفت فيها سياحاتها فى كل من (بورما ، والهند ، وروسيا ، والمغرب ، ومقاطعة (بريتانى) بفرنسا ، واليابان ، ثم الشرق الأوسط) . وقد ترجمت كتبها إلى اللغات : الفرنسية ، والألمانية ، والهولندية ، والأسبانية ، والإيطالية ، والسكندنافية . وهذه القصة الممتعة التى صورت فيها مأساة العدوان الصهيونى الغادر على عرب فلسطين خلال حرب ١٩٤٨ هى أحدث رواياتها . وقد صدرت فى لندن منذ بضعة أعوام ، وصدرتها بالإهداء التالى :« إلى اللاجئين الفلسطينيين ، ومن أجلهم ، أولئك الذين قالوا لى فى كل الأقطار العربية التى استضافتهم : (لماذا لاتكتبين قصتنا نحن ، قصة الخروج الآخر ـ خروجنا نحن ..) .. » وأعطيتكم أرضاً لم تتعبوا عليها ، ومدناً لم تبنوها وتسكنون بها ، ومن كروم وزيتون لم تغرسوها تأكلون !»

(سفر يشوع من التوراة ، عدد ٢٤ / ١٣)

وكتبت المؤلفة مقدمة للرواية قالت فيها : «حتى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ كانت ثمة دولة تسمى (فلسطين) . وهى بلد عربى الصبغة بصورة واضحة . وحين صدر وعد «بلفور» فى نوفمبر ١٩١٧ مقرراً أن الحكومة البريطانية تؤيد قيام وطن قومى لليهود فى فلسطين . كانت غالبية السكان هناك من العرب ، بنسبة تزيد على ٩٠ فى المائة . إذ كان فى فلسطين يومئذ نحو ٥٠ الف يهودى ، أما المسلمون والمسيحيون فكان عددهم نحو ٦٧٠ ألفا .. ولكن فى سنة ١٩١٥ كان اليهودى والصهيونى البارز «هربرت صموئيل» قد نادى بهجرة ثلاثة او أربعة ملايين من اليهود إلى فلسطين تحت الحماية البريطانية . فوضحت من ذلك المطامع الصهيونية بصورة لا خفاء فيها ، وثبت أن مايرمون إليه ليس إنشاء وطن قومى لليهود بل إقامة دولة يهودية مستكملة الأركان !! ولما صدر إعلان بلفور بعد ذلك بثلاث سنوات ، كان الحل البديهى فى نظر اليهود هو ازدياد الهجرة اليهودية إلى فلسطين بحيث يصبح اليهود هناك أغلبية ! وفى سنة ١٩١٩ أصدر الزعيم الصهيونى «وايزمان» تصريحه المشهور بأن فلسطين ينبغى أن تصير يهودية مثلما تعتبر انجلترا إنجليزية !! وعند نشوب الحرب العالمية الثانية كان عدد اليهود فى فلسطين قد قفز من ٥٠ ألفاً إلى ٦٠٠ ألف !!

